ALAÍDE VENTURA MEDINA

ألاييدي بينتورا ميدينا

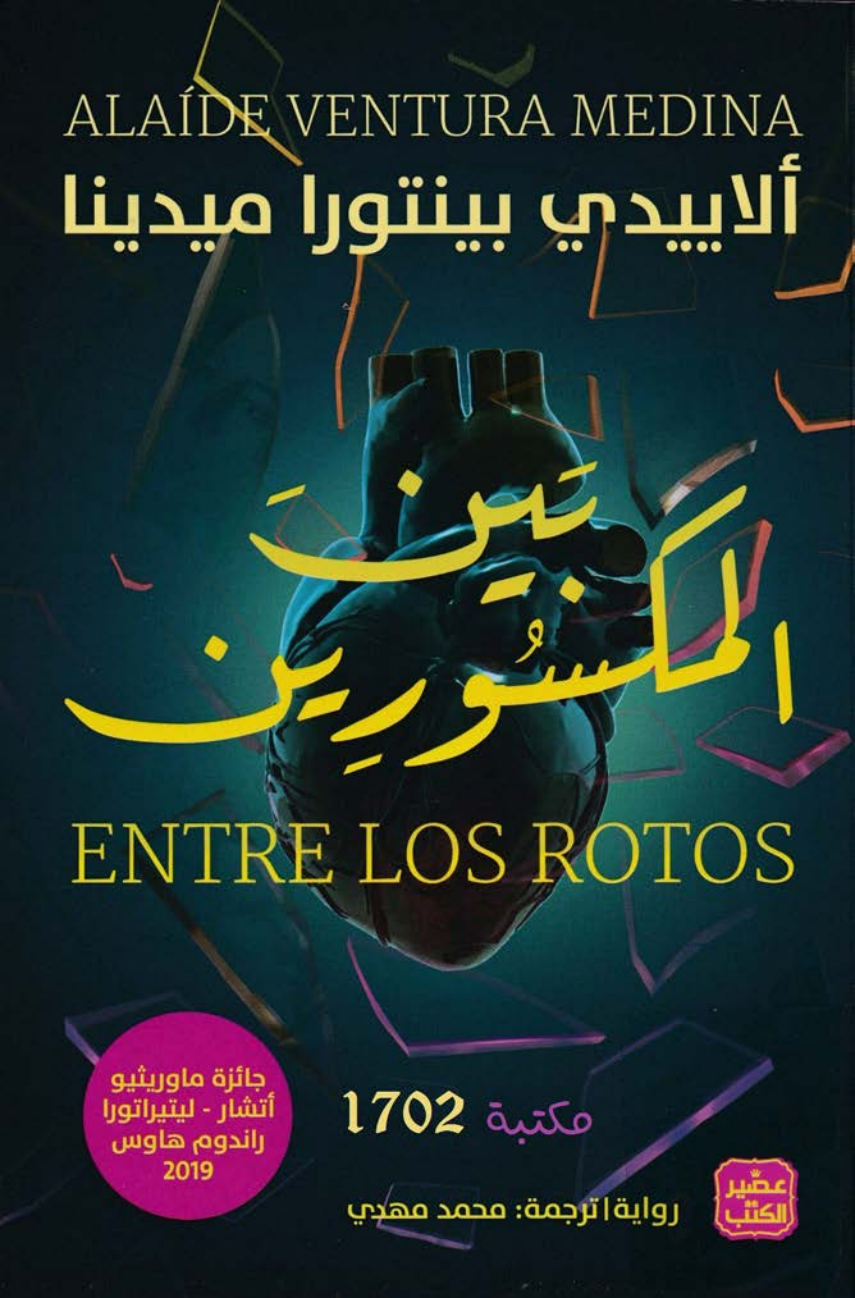

بين المكسورين

ENTRE LOS ROTOS

جائزة ماوريثيو أتشار - ليتيراتورا راندوم هاوس 2019

مكتبة 1702

رواية | ترجمة: محمد مهدي

عصير الكتب

بين المكسورين

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

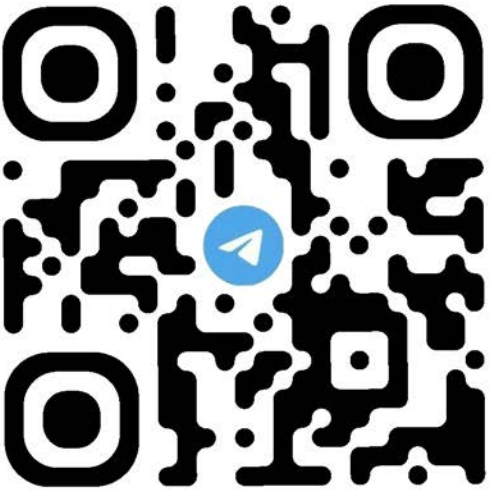

عصير الكتب
لتجارة الكتب

إدارة التوزيع:
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

● العنوان الأصلي: Enter los rotos
● العنوان العربي: بين المكسورين
● طُبِع بواسطة:
Literatura random house
● حُقوق النشر:
copyright © by Penguin Random House Grupo Editorial, 2019
● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● ترجمة: محمد مهدي
● تدقيق لغوي: مُهاب هشام
● تنسيق داخلي: علي خلف
● الطبعة الأولى: يناير / 2023م
● رقم الإيداع: 20326 / 2022م
● الترقيم الدولي: 978-977-6972-61-2

مكتبة
t.me/soramnqraa

ALAIDE VENTURA MEDINA

ألاييدي بينتورا ميدينا

مكتبة 1702

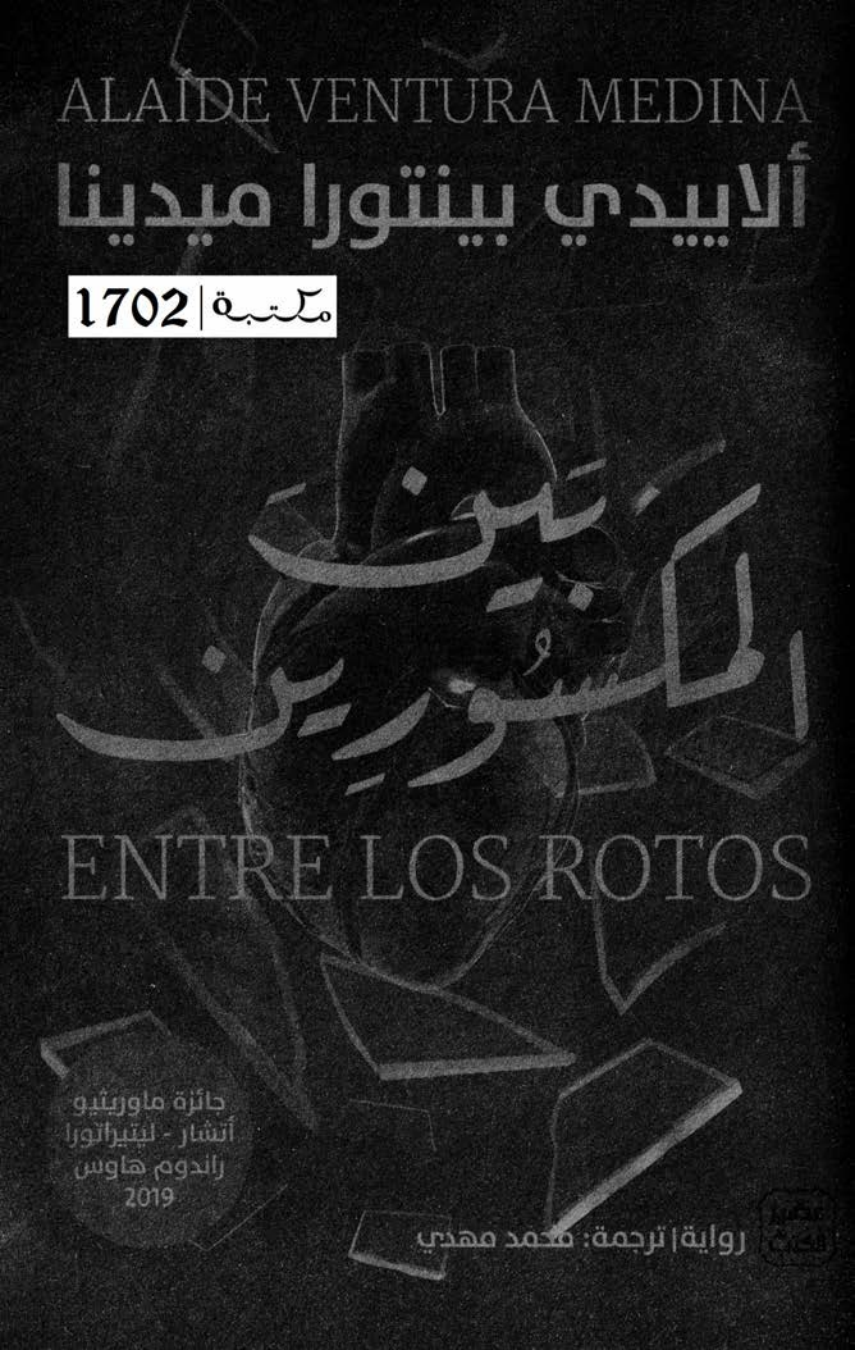

بين المكسورين

ENTRE LOS ROTOS

جائزة ماوريثيو أتشار - ليتيراتورا راندوم هاوس 2019

رواية | ترجمة: محمد مهدي

إهداء الترجمة

إلى محمد الفولي وأسماء جمال عبد الناصر

دائمًا وأبدًا.

إلى أخي، الذي تواطأ معي بالفعل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

من المهم أن يحظى المرء بمن يتواطأ معه. على الرغم من أن الأمر ليس ضروريًّا، تبدو فكرة اعتماد المرء على شخص قادم أيضًا من ذلك المكان فكرة جيدة، على عينين شهدتا الحرب نفسها وخسرتا الوطن نفسه.

ليس مستحيلًا أن يمضي المرء قُدُمًا بلا رفيق، بل أصعب فحسب؛ إذ ينبغي إعادة بناء القصة من الصفر، ومع ذلك لن تكون دقيقة حتى في وجود رفقة.

أحيانًا تكون أول حرب هي البيت، وأول وطن ضائع هو العائلة. يمكن للزوج أن يكون متواطئًا مناسبًا، يمكن للابن أيضًا أن يصبح كذلك، أما الكلب فتنقصه مَلَكَةُ الكلام، لكن دور المتواطئ الرئيسي محجوز للأخ، الشاهد الحقيقي الوحيد على المذبحة. سيأخذ أخي ملاحظات مختلفة أو ينتبه إلى تفاصيل غفلتُ عنها، ولا ينبغي نسيان أننا نسير معًا وأننا اليوم نخاف الوحوش ذاتها.

الأخ هو تجسيد الأنا المنعكسة التي لا يمكن التخلي عنها، لذلك لا يُغْفَرُ للأخ الخائن، والهجران أحد أشكال الخيانة.

أول ما يثير تساؤلي هو مَن التقط لنا تلك الصورة: نظهر فيها نحن الأربعة مع أننا في تلك الفترة لم نستقبل زوارًا في بيتنا لأن بابا لم يحب هذا الأمر.

كنا لا نزال نعيش في «شارع فلوريستا»، أعرف ذلك لأن تلك هي الأريكة التي ألقتها ماما في القمامة حين انتقلنا إلى مبنى العائلات السكني[1].

أرتدي الزي المدرسي وكنزة بيضاء مخططة حاكتها لي الجدة، بينما يرتدي أخي خوليان زي لاعب بيسبول، ما يعني أنه لم يلتحق بعد بالمدرسة الابتدائية. اعتاد ألا يخلع زي الضارب ولو لثانية واحدة.

في تلك الفترة كان لا يزال يتكلم ولم يختلف عن أي طفل آخر، ربما تحلى برقة أكبر من الغالبية، وتملكه الهوس بتكرار النكتة ذاتها حتى يتأكد من أن جميع مَن بالمنزل قد سمعها، وكذلك بغناء أغنيات من الراديو دون أن يعرف معناها بالضبط.

يويو لفَّة يا صابرين[2]

We all live in a yellow submarine

---

(1) Multifamiliar: مبنى سكني يتألف من عدة طوابق وبه العديد من الشقق المخصصة للعائلات. (المترجم).

(2) العبارة الواردة في النص الأصلي هي «Wiwilí ni ayer o somarí»، وهي عبارة لا معنى لها ومحاكاة سيئة للجملة الواردة من أغنية فرقة «ذا بيتلز»،

تساؤلي الثاني هو لماذا قد يحتفظ أخي بهذه الصور، لماذا يجمع أدلة عن تلك السنوات، إذ لا فائدة من انتشال الأغراض من بين الركام إلا لو كانت تلك الذكريات غالية، أما هذه الصور فليست سوى أغوار شخصية صغيرة، ندوب التأمت على نحو سيئ.

تنظر ماما إلى الكاميرا بخجل، ساقها موضوعة فوق الأخرى وظهرها مستقيم، وثمة إكليل يجمع شعرها الذي لا يزال أسود.

يجلس بابا مباعدًا بين ساقيه ومائلًا إلى الأمام قليلًا، كأنه لم يجد الوقت الكافي لكي يعدل جلسته على المقعد.

تذكرت الآن وأنا أفكر في الأمر أننا، في منزل شارع فلوريستا، امتلكنا تلفازًا كبيرًا بعض الشيء استقر فوق قطعة أثاث خشبية. ربما تكون تلك هي إجابة أحد سؤاليَّ، فلا بد أن بابا وضع الكاميرا على قطعة الأثاث ثم جلس على الأريكة في غضون عشر ثوان قبل أن يتلقى الوميض في عينيه.

أحببت جدًّا هذا التلفاز الضخم الذي اشترى له والداي جهازَي تحكم من بعد، على أمل أن نكف عن الشجار أنا وأخي، لكن ما حدث هو العكس؛ يغير خوليان القناة فأعيدها، يخفض الصوت لأنه يخشى إزعاج بابا، فأرفعه إلى أعلى درجة.

كان هذا التلفاز رائعًا ومن علامة تجارية شهيرة، لذلك تألمت كثيرًا حين كسره بابا في إحدى نوبات غضبه.

لذلك ارتأيت محاكاتها باللغة العربية حفاظًا على روح النص الأصلي. (المترجم).

أنا وأخي، بين أرجوحات «حديقة ميرثيد»، وثمة بِرَك مياه في الأرض تشير إلى هطول المطر. أدهشني حقًّا احتفاظه بتلك الصورة، فعلى ما أذكر لم تكن تلك الأمسية بالذات من الأمسيات اللطيفة.

يظهر في الخلفية بائع البالونات الذي يقف كل أحدٍ تحت ظل المشمعات بجانب حلوى «الاتشورُّوس»[1] المحشوة. لطالما دعاني ذلك البائع «كواتيتا»[2] وتذكر أكثر البالونات التي أحبها.

«كواتيتا، انظري ماذا لديَّ من أجلك».

حينئذ يمد يده ليعطيني بالوني المفضل: معدني وعليه رسوم ملونة. يُخْرِجُ بابا المحفظة على مضض من دون أن ينظر إليه، ويرمي إليه الأوراق باحتقار. لطالما كرهت تلك الحركة، وفي تلك اللحظات كرهته شخصيًّا.

بالنسبة إليَّ، وهذا أمر لم يتغير مع الوقت، فالشخص الذي يثير وجودي أقل قدر من اهتمامه يصبح في عداد أصدقائي. أحمل اسمًا

(1) Los churros: وجبة خفيفة تقليدية في إسبانيا والبرتغال ودول أمريكا اللاتينية وبعض مناطق الولايات المتحدة، وهي عبارة عن شرائط من العجين مقلية في الزيت يضاف إليها السكر وتقدم مع الشوكولاتة الساخنة أو القهوة بالحليب، وتشبه إلى حد كبير حلوى بلح الشام المعروفة لدينا. (المترجم).

(2) كواتيتا: تصغير لكلمة cuata التي تعني في المكسيك «توأم» أو «صديقة». (المترجم).

يصعب نطقه، إذ يتعثر اللسان غير المتمرس عند نطق «الياتو»[1]. لو تمكن أحد من نطق نبرته وتقسيم مقاطعه بشكل صحيح، فإنه يفوز تلقائيًا بولائي ودفاعي عنه في أي معركة، ما دامت لا تقتضي معارضة بابا.

كل ما استطعت تقديمه إلى صديقي في ذلك الحين هو ابتسامة عفوية، الابتسامة ذاتها التي استأثرت بها لماما والجدين، فأومأ برأسه ممتنًا وهو يضع يده على قبعته «السومبريرو».

أعتقد أن بابا لم ينتبه قط إلى تلك الإيماءة السرية بين البائع و«كواتيتا» خاصته.

ينتعل أخي في الصورة الحذاء الرياضي الأبيض الذي سيسبب لنا الكثير من المشكلات، جوانب النعلين نظيفة وتشير إلى قضائه اليوم بأكمله في تفادي بِرَك المياه. كانت العملية تسير بنجاح وقت التقاط الصورة، إذ تمكنّا من العودة إلى المنزل من دون إغضاب بابا.

في تلك اللحظة لم نضع في الحسبان احتفال القديس الشفيع[2] الذي سيغلق مدخل شارعنا ويمنع مرور السيارة. وبينما نسير مترجلين نحو البيت، انضممت أنا وأخي للحظة إلى الاحتفال الذي يعج بالمفرقعات والشموع النارية، وفجأةً ظهر صاروخ متعرج[3]

---

(1) الياتو (hiato): توالي حرفين متحركين في الكلمة الإسبانية لكنهما لا ينتميان إلى المقطع نفسه. (المترجم).

(2) بالإسبانية Fiesta Patronal، وهو احتفال سنوي يقيمه سكان مدينة أو قرية أو حي في البلدان الناطقة بالإسبانية، تكريمًا لقديسهم الشفيع. (المترجم).

(3) اسمه بالإسبانية «buscapiés»، المقطع «busca» يعني «البحث»، والمقطع«pies» يعني «الأقدام»، وهو نوع من الألعاب النارية يسري بين الأقدام فور إشعاله. (المترجم).

صغير، وبصورة مباغتة ارتطم بحذائي، فاضطر أخي إلى أن يدوس عليه ليطفئ النار. لا تزال رائحة المطاط المشتعل تحثني على البكاء.

تُعَدُ تلك الليلة إحدى أحلك وأبرد ليالي تلك الفترة. كنت في قرابة الثامنة من عمري، لكن أتذكر أنني بللت فراشي كأنني في الثالثة أو الرابعة.

إن لم تخني الذاكرة، تلك هي المرة الأولى التي يتعرض فيها أخي للضرب من بابا، إذ لم يكن جسده معتادًا الألم بعد.

لم يكن جسدي هو الآخر معتادًا تحمُّل العبء الثقيل والخانق لتأنيب الضمير، الشعور بالذنب نحو الأشياء التي فعلتها وتسببت فيها، الخطوط الحمراء على جلد أخي، وجنته المتقيحة، عينه المتورمة، ادعاء إصابته بالجدري الذي أبقاه في المنزل لأسبوعين، كي لا يراه المعلمون، كي لا يطرح الجيران الأسئلة. صرخات من الرعب، صوت طفل صغير.

ثم لا شيء.

صمت ضحايا المعركة في الليل الموحش.

الذنب داء تستعصي مداواته، ولو ساءت رعايته فسوف يتدهور بمرور الوقت. يتغذى على غيره من المشاعر، تلك التي يهضمها لمنفعته الخاصة. الضغينة، الحزن، الفرح، الخوف، كلها مُقبِّلات لهذا الذنب البدائي الهائل الذي يزداد قوةً كل يوم.

يتعلم المرء التعايش مع الذنب، ذلك الضيف غير المرغوب فيه الذي أشعل النار في كل المخارج.

الذنب: الفعل أو التقصير، العاقبة.

أحيانًا قادني فِعْلُ شيء إلى النتيجة ذاتها لعدم فعل شيء.

بابا هو الذي ابتكر لعبة التعريفات، لأنه أراد دائمًا أن يحظى بأبناء أذكياء.

«إن كنت ستصبحين سمينة، فعلى الأقل كوني مثيرة للاهتمام».

كنت في الصف الثالث الابتدائي والتحق أخي لتوه بالصف الأول. أمسك بابا قاموسًا وألقاه في وجه خوليان ليكف عن الامتعاض، وأخبره بأن عليه التوقف عن البكاء على كل شيء والبدء في التصرف كولد كبير.

«اللعنة، أنت لم تعد طفلًا. تعلَّمْ استخدام الكلمات».

ومع ذلك تأخر خوليان عامًا إضافيًّا في تعلم القراءة والكتابة. بدأتُ أقرأ بطلاقة منذ سن الخامسة، وهو ما زاد من غضب بابا الذي ظل يقارن بيننا.

حينما لم نجد شيئًا أفضل لنفعله، اعتدت أنا وخوليان أن نفتح القاموس لأقرأ له تعريفات عشوائية. لم نفهم شيئًا، كما أننا فعلناها بدافع الخوف. لم نكن متأكدين هل يتحدث بابا بجدية حين يرغمنا على قراءة ذلك الكتاب، أم أنه يستثيرنا ليختبر مدى طاعتنا.

يستثير: يسبب، يُحدث. يستثير ألمًا. يصيب بجرح.

بدايةً من تلك الفترة، شرع بابا يضرب خوليان بصورة شبه أسبوعية. لا أعرف إن باتت الضربات عند لحظة بعينها أمرًا يحتمله

أخي. ثمة أيام بكى فيها بصورة أشد من غيرها، عندئذ يتخذ بابا إجراءات تعسفية مثل إلقائه من النافذة أو إطفاء سيجارة في ذراعه.

التصغير: تقليل حجم الشيء. ضآلة، اهتمام. ذُريِّع طُفيل ذي ست سنوات. لقبٌ للتدليل. خوليان لم يكن قط «خوليانثيتو»[1].

ظللنا نلعب لعبة القاموس حتى بعدما كبرنا، بدأنا نبتكر تعريفات خاصة، وحاول أحد أخلَّائي الاندماج في ديناميكيتنا لكنه لم يستطع؛ لم يفهم أننا لا نرغب في وصف العالم، بل في خلق عالم خاص بنا. لم يفهم بابا ذلك أيضًا، بينما لم تعبأ ماما بفهمه قط.

بابا: مَن أدين له بهوسي باللغة، لأنه علمني كرهها فقضيت حياتي بالكامل أحاول إخضاعها.

ماما: المتحاشية، الصامتة.

لغتي الأم هي الصمت.

(1) إضافة المقطع «ثيتو» إلى الاسم تفيد التصغير والتدليل. (المترجم).

لطالما حظيت ماما بأذنين كبيرتين، لكن في سن الخامسة عشرة وفي وجود إكليل على شعرها، صار شكلها مضحكًا. أذنان مدببتان في وجهها البيضاوي وفكها نصف الغائر.

أعتقد أنني أتذكر لحظة إهداء ماما هذه الصورة إلى خوليان، بعدما سخروا منه في المدرسة وأطلقوا عليه ألقابًا. كان طفلًا ذكيًّا، لكن الشيء الذي لم يتعلمه قط هو الدفاع عن نفسه.

ذكي: اثنان زائد اثنين يساوي أربعة. أربعة هم الأطفال الذين أحاطوا بخوليان عند الخروج. واحد في واحد يساوي واحد. واحد هو بابا الذي ضرب خوليان لأنه ليس رجلًا بما يكفي.

«أنت الآن في السابعة، كُفَّ عن كونك مخنثًا».

أهدت ماما الصورة إلى خوليان لتُشعره بتحسن. من يدري إن كانت قد نجحت في ذلك، لكنه احتفظ بها طيلة تلك السنوات.

أنا التي تظهر في الصورة -بطريقة ما- لأنني شديدة الشبه بماما. إنها واقفة، ترتدي فستانًا أبيض على شكل جرس. ربما ليس أبيض بل ورديًا أو أزرق فاتحًا، فقد أكل السبيدج درجات الألوان. يحيط بها أربعة حراس: عمي خوسيه وثلاثة شبَّان آخرون ذوو بشرة سمراء زادت قتامتها إلى جوارها.

الإكليل الظاهر في هذه الصورة هو في الواقع تاج بلاستيكي مرصع بألماس زائف. ماما، الملكة المتوجة حديثًا، الزعيمة الجديدة لإمبراطورية الترتر ورائحة الياسمين وبودرة الوجه.

يرتدي الشبَّان ملابس بيضاء لكنهم ليسوا مجرد صبية سفن، بل جنود صغار التحقوا للتو بالكلية البحرية. مهمتهم الوحيدة في تلك الليلة هي الاعتناء بالملكة ذات الأذنين الكبيرتين: ألَّا يمسها سوء حتى نهاية الحفل، ذلك الحفل الراقص الأول الذي يُعد أيضًا بداية حياتها الجديدة، اليوم الذي تعرفت فيه إلى بابا.

ظهر القط موستاتشو ذات يوم وأقام في الفناء، حيث أخرج الرمل من أحد أُصص ماما واستلقى بداخله لكي يتبرد. حدث هذا في الصيف، وحين عدت أنا وأخي من المدرسة ركض لتحيتنا كأنه يعرفنا. قدمنا له الحليب ولحم الخنزير، وحرصنا على عدم لفت انتباه بابا. فحصنا جروح ظهره، لكننا لم نستطع فعل شيء لمداواتها. كان أجمل من ألّا نلتقط له صورة، ولم نعبأ لو وبخنا بابا لاحقًا لأننا أخذنا الكاميرا. وضعه خوليان في منتصف الخلفية وانتظره لينظر إلى العدسة، عندئذ قررنا تسميته موستاتشو[1]، فلديه بقعة صغيرة سوداء أسفل أنفه، شارب بارز -بأناقة- من بين فروه الأبيض.

موستاتشو: الشارب، الميزة. كل حنان العالم مجتمع في قِطٍّ سحابة.

ينظر القط إليَّ من الصورة بعد كل تلك السنوات، وثمة شيء في عينيه الزرقاوين يهرب بمرور الوقت. أتفهم لماذا احتفظ أخي بهذه الصورة.

لقد مكث موستاتشو معنا طيلة الأيام الأربعة التي حظينا فيها بلحم خنزير لنقدمه إليه.

ذهبنا للتسوق يوم السبت كالمعتاد، واغتنمت أنا وخوليان الفرصة لنطلب شراء كروكيت البطاطس. لم يرفع بابا نظره أصلًا ليرانا، وانشغل كعادته في مراجعة فواتير الماء والكهرباء. ماما هي التي نظرت إلينا، بذلك التعبير الدافئ والكسير الذي يبدو عليها أحيانًا،

(1) «Mostacho» بالإسبانية تعني «شارب». (المترجم).

نظرة من يشاهد عرضًا، مأساةً، مزحةً، حادثًا، أيًّا كان، ومع ذلك لا يستطيع البكاء أو الضحك أو أي شيء، يشاهد ليس إلا، يتقبل ويواصل النظر، وهكذا حتى نهاية العالم.

رحل موستاتشو من دون أن يقول وداعًا ولا شكرًا. لم تقنعه جلود الدجاج التي خبأناها من أجله بالبقاء، فحزنت على فقدان صحبته، لكنني حسدته أكثر على حريته.

الحرية: حركة القط السحابة. إمكانية الهرب وعدم الرغبة في فعلها. إمكانية الهرب وفعلها.

الأماكن التي هُيِّأ لي أنني رأيت فيها القط موستاتشو على مدار السنين:

بالقرب من أرجوحات حديقة ميرثيد، قبل تجديدها.

خارج «كنيسة سان جابرييل»، ذات يوم كانت فيه جدتي تسير بسرعة استثنائية.

في شرفة منزل بـ«شارع ماجنولياس»، ذات يوم بين عامَي 1997 و1998.

الأماكن التي هُيِّأ لي أنني رأيت فيها القط موستاتشو على اعتبار أنه عاش أكثر من عشرين عامًا وسار لمسافات طويلة:

أمام «مسرح رويال»، في ليلة العرض الأول للمسرحية التي ترجمتها صديقتي آنا.

في موقف حافلات «أبينيدا 10» و«كونستيتوثيون»، عدة مرات.

خارج «مطعم أوبريرو» للتاكو، في صباح يوم أحدٍ بينما أتنزه مع ميمو الأول في «الكومبي»[1] الخاصة بأبيه.

في «شارع سومبرا»، ذات مساء وأنا خارجة من أحد الفنادق.

---

(1) شاحنة صغيرة بها أماكن للركاب والأحمال. (المترجم).

لطالما أصدرت أرجوحات حديقة ميرثيد صريرًا اقشعرت منه الأبدان، فأرجوحات التوازن مكسورة وانخدشت جلودنا من زحاليقها شديدة الصدأ، ومع ذلك بقيت أفضل ألعاب المدينة.

في تلك الفترة كان خوليان يخاف من التيتانوس، فقد ذاع حينها خبر عن طفل في مثل سنه تشوَّه ظهره بفعل سلك شائك. اضطر الطفل المسكين إلى قضاء ما تبقى من حياته وهو يمشي على يديه ورجليه بينما بطنه إلى الأسفل، مثل العناكب.

الحق يُقَال، في تلك الفترة كان خوليان يخاف من كل شيء تقريبًا.

المخاوف: التيتانوس، الكلاب، البرق، الكوابيس، بابا، الأفاعي.

بعد مرور عدة سنوات، بعدما انتقلنا للعيش في المدينة، انقطعت المياه مدة أسبوع فاعتدت أنا وخوليان أن نتجول للبحث عن صنبور مفتوح نملأ منه دلاءنا. ذات مرة ذهبنا نتفقد حديقة تحتوي على أرجوحات معدنية كأرجوحات حديقة ميرثيد، ولأننا لم نجد شيئًا أفضل لنفعله، أقنعته بالركوب.

قلت له: «تخيل لو أصابتك بالتيتانوس».

لكن لم يفهم خوليان مقصدي، فارتفع لحظتها سور بيني وبينه.

قضيت المساء بأكمله أحكي له ذكرياتي عن تلك السنوات، لكنه بالكاد تذكر حديقة ميرثيد، ربما بسبب الصورة التي احتفظ بها. لقد

نسي تمامًا مسألة الطفل العنكبوت، بل وبدت له طريقتي في حكايتها مضحكة بعض الشيء.

أصررت: «كنت تخافه جدًّا، لدرجة أنك طلبت من بابا ذات مرة ألا يضربك بإبزيم الحزام لكيلا يصيبك بالتيتانوس».

بدا السور حينها أعلى من ذي قبل.

ظل خوليان صامتًا لبقية الأسبوع، ثم عادت المياه سريعًا ولم تطأ أقدامنا الحديقة مرة أخرى.

لم أعتذر إليه. كان عليَّ فعل ذلك.

المخاوف: الصمت، السخرية، الوحدة، إيذاء شخص عزيز، الموت، بابا.

ذات ليلة أيقظتني ماما فجرًا لتخبرني بأنها ستسافر، وأنها ستخرج في تلك اللحظة بالتحديد، بينما تحمل حقيبة على ظهرها. أخبرتنا بأن الجدة ستأتي للاعتناء بنا وعلينا أن نحسن التصرف معها، كما طلبت مني أن أشرح الأمور لخوليان حالما يستيقظ وقبل أن نذهب إلى المدرسة. سألتها أين بابا.

«لا تقلقي حيال هذا الأمر الآن».

القلق: الأمور التي تقلقني تؤذيني حتى قبل وقوعها.

في الصباح التالي، صبَّحت علينا الجدة ببيض بالصلصة وعصير برتقال، ولم يكن هناك أثر لبابا. وعدتنا الجدة أن تُعِدَّ طبقها الشهير «إنشيلادا الدجاج» على الغداء، ثم أوصلتنا إلى المدرسة بسيارة أجرة وقالت إنها ستأتي لاصطحابنا في تمام الثانية.

يَعِد: يُقسِم، يستبق. طُعم. الوعد في حد ذاته يساعد على النظر إلى الأمام.

من اصطحبنا في ذلك اليوم بعد خروجنا هو بابا. أخذنا لتناول الهمبرجر كأنه عيد ميلاد أحدنا، وانتزع مني البطاطس قائلًا إنني أكلت ما يكفي، ثم تجولنا بالسيارة لبعض الوقت. أصيب أخي بالغثيان وقال إنه يريد التقيؤ، فأنزله بابا في محطة وقود وأخبره بأن عليه تدبر أموره بنفسه، بكى خوليان، لكن بابا لم يجرؤ على ضربه في مكان عام.

«تمهل حتى نعود إلى البيت».

في البيت كانت ماما تنتظرنا بعد عودتها من سفرها المزعوم، وبدا وجهها متورمًا كأنها أمضت الصباح بأكمله في البكاء. قبَّلها بابا على جبهتها ويديها.

«شكرًا يا حبيبتي. سترين أن كل شيء بات مختلفًا».

غزت رائحة «إنشيلادا الدجاج» أنحاء البيت، إلا أن الجدة لم تكن موجودة ولم يرغب أحد في إخباري بسبب رحيلها، ورغم أنني أكلت شطيرة همبرجر كاملة ونصف شطيرة أخي، لم يعلِّق بابا على بدانتي حين أخذت قليلًا من الدجاج.

السفر: نزهة طويلة أو انتقال غير مكتمل. ذهاب وعودة.

عانق خوليان ماما كأنه لم يرها منذ عام.

قائمة بأفضل أطباق الجدة:

إنشيلادا الدجاج.

دجاج بصلصة الفول السوداني.

مانتشامانتيل[1].

يخنة كرات اللحم.

شرائح السمك البانيه.

فطيرة المحار.

أخطبوط بالثوم والفلفل الحار.

أخطبوط بالبصل.

جمبري ألا ديابلا[2].

جمبري بجوز الهند.

---

(1) يخنة مكسيكية تتكون من لحم الخنزير أو الدجاج أو الديك الرومي مع الفلفل الحار والطماطم والأناناس والموز. (المترجم).

(2) تعني حرفيًا «الجمبري الشيطاني» أو «الجمبري على طريقة الشيطان»، وهو طبق مكسيكي يتألف من الجمبري مضافًا إليه الطماطم والزبدة والثوم والبصل ومختلف أنواع الفلفل الحار. (المترجم).

اتشيلباتشولي[1] بالجمبري.
حساء الجمبري (لا يجب الخلط بينه وبين الاتشيلباتشولي).
بيض بالصلصة.
لحم بقري مفروم بالخضراوات.
صلصة مولي[2].

(1) الـ«Chilpachole» هي يخنة تُصنع من المأكولات البحرية وتتكون من الطماطم والبصل والفلفل الحار المجفف والثوم. (المترجم).

(2) صلصة مكسيكية غنية بالتوابل والفلفل الحار، يضاف إليها الذرة أو التورتيًا أو الخبز، وأحيانًا يُصنع منها يخنات من اللحوم أو الخضراوات. (المترجم).

أنا وأخي فوق الرمال، بملابس السباحة التي اخترناها بنفسينا في متجر الفندق. يغطي خوليان وجهه لأن الشمس تضايقه على ما يبدو، بينما أبتسم وأنظر إلى الكاميرا. كان كل يوم على الشاطئ أسعد أيام حياتي.

أمكن لهذا العام أن يكون رائعًا. أراد بابا استعادة ماما، استعادتنا جميعًا، وأخذ ينفق المال كما لم يفعل من قبل. إنها المرة الأولى التي نقتني فيها دراجة، وبسبب صغر حجمها بالنسبة إليَّ اضطررت إلى التبديل وأنا واقفة، لأن المجال لن يتسع لركبتيَّ لو جلست، لكن لحجمها الكبير على خوليان اضطر أن يميل بها عند الضغط على المكابح لكيلا يسقط. لا أنا ولا هو اشتكينا، فاقتناء دراجة غير مريحة أفضل من عدم اقتناء دراجة أصلًا.

في تلك السنة أيضًا حظينا بسيارة جديدة: «جيتا» سوداء بنوافذ كهربائية. بدأنا نذهب إلى البحر بهذه «الجيتا»، وطالما احترق ظهري من فرط التعرض للشمس.

في الرحلة التي في الصورة اتفق بابا على نزهة بحرية، أربعين دقيقة من المرطبات اللامحدودة وجميع الكعكات التي بمقدورنا أكلها. واتته الرغبة بالطبع في حرماني من حرية الوصول إلى الدقيق والدهون، لكنه كبحها. كان في مرحلة تحوُّله إلى رجل نبيل.

أردنا السباحة أنا وخوليان بعد النزهة البحرية، ولا بد أنهما التقطا لنا الصورة مباشرةً قبل نزولنا إلى البحر؛ لم تظهر علينا بعدُ آثار البلل، لكن بدا بطنانا منتفخين من فرط الأكل.

لا يمكنني أن أفهم لماذا يحتفظ خوليان بهذه الصورة، تُرى هل نسي ما جرى بعدها؟

تختلط عليَّ جميع تفاصيل ذلك المساء، إذ تتألف تلك الذكرى من مجموعة قِطع مبهمة وسيئة الالتصاق. لا أعرف سوى أن خوليان تقيأ في المصعد، وأنني احتضنته، وأن بابا وماما تشاجرا.

بين الظلال رأيت بابا يهرب في منتصف الليل. نقود على منضدة الهاتف: 800 بيزو جديدة، حافلة من الدرجة الثانية، ذات مقاعد مبتلة من العرق وقِطع من العلكة الملتصقة على حواف النافذة. التوقف في وسط الطريق لمشاهدة ثقب عملاق في الأرض، حفرة ذات جدران شديدة الانحدار يمكن للعائلات السعيدة التقاط الصور معها. ماما نائمة في مقعدها، بينما تتولى الحبوب أعمال السمكرة في جميع أنحاء جسدها، عينها اليمنى: ورم مكشوف ومتفجر. ظهرها: الخريطة التي ترك عليها بابا آثاره.

أتذكر أيضًا كلمات أخي عند نزولنا من الحافلة، الفكرة اللعينة التي لم تفارقه قط تأصلت ذلك المساء في قلبه وهو طفل في الثامنة: «كل هذا بسببي».

تناسب المال الذي استعد بابا لإنفاقه مباشرةً مع عدد الأيام التي غابها، فبعد واقعة النزهة البحرية، استمر لفترة من الوقت في كونه أكرم رجل في المكسيك.

الكريم: مَن يعطي، من يُقدِّم: هدايا، نصائح غير مطلوبة، أوامر، ضربات.

شعرت بأنني مثل مليونيرات التلفاز، ونسيت كيف يكون الاشتهاء. حصلت على كل شيء: ألعاب، ملابس، مجلات. اشترى لي بابا كل ما رغبت فيه، بدد على نزواتي المال الذي ادَّخَره منذ امتناع أخي عن الكلام. لم يطلب منه خوليان غداءه حتى، وعزم على الوفاء بنذره للصمت. بينما انشغلت في تلك الأثناء بتجربة كنزات جديدة وتزيين منزل باربي.

هذه مشكلة الصمت: أنه يفوز دائمًا. يعتقد المرء أنه يسيطر عليه، لكن الحقيقة أنه هو الذي يحكم.

توقف خوليان بمحض إرادته عن التحدث إلى بابا أو الإجابة عن أسئلته وتركه يجتر كلماته أمام الجميع، لم يعد يصرخ من الضربات المتتالية، حتى أن بكاءه نفسه صار أكثر استئناسًا.

بمرور الوقت توقف عن التحدث معنا أيضًا، اعتاد أن يلوذ بأحضان ماما لكنه لاذ بالصمت أكثر، ورغم استمراره في اللعب معي فقد أصبح صوتي تدريجيًّا هو الصوت الوحيد المسموع.

«دورك لتكون الحارس يا خوليان».

«ارفع صوت التلفاز يا خوليان».

حينما أتمَّ الحادية عشرة قضينا أيامًا بأكملها من دون أن نسمعه يتكلم، صار أخي لغزًا.

وحده من عاش مع شخص صامت يفهم الطريقة التي يستطيع بها الصمت أن يشغل المساحات ويستولي عليها.

كان صمت أخي يغزو كل شيء، ويترك بقيتنا عاجزين عن الحركة.

الصمت فراغ ثقيل، هو الضباب الخانق الذي يغمر العالم ويشوش الرؤية. إنه عناء مشترك ومتبادل، الهدوء الزائف الذي يسبق المذبحة.

تمر الساعات الصامتة بصورة أبطأ.

الصمت لعبة شطرنج نسي فيها كلا الطرفين أن دوره قد حان، لن يبادر أحد بالكلام، وسيظلان هكذا إلى الأبد.

أظهر في المنتصف، مبتسمة وجالسة على جذع خشبي صغير، وساقاي مفتوحتان. لو كنت أرتدي تنورة لظهر سروالي التحتاني، ربما لهذا السبب اعتدت ارتداء السراويل القصيرة.

كل ما هو حولي أخضر، إنها تلك الخضرة المميزة لـ «بيراكروث»، أغمق من العشب، وأفتح من الأوراق الكثيفة لأشجار المدن الكبيرة. غابة خضراء، راية خضراء، جدَّان أخضران. لطالما أنبتت شجرة «سابوتي مامي»[1] -التي نمت بلا رادع وسط الحديقة- ثمارًا لا يمكن الوصول إليها، إذ كانت عالية جدًّا على الجد وانبعثت منها رائحة حامضية عند السقوط. جثث ماتت معلَّقة على الأفرع .

لا أتذكر المدة التي قضيناها في منزل الجدَّين، ولا أعرف سوى أنني اعتدت غسل ثيابي الداخلية لأنني لم أجلب منها ما يكفي، وارتداء القميص نفسه مدة يومين أو ثلاثة، تمامًا كما اعتاد أخي أن يفعل وهو كبير، خلال الفترة التي عشنا فيها معًا. أسبوع كامل بالسترة ذاتها، شهر، الحياة كلها.

لا بد أن أحد الجدين هو من التقط هذه الصورة، فهما الوحيدان اللذان تمكنا من إضحاكي في تلك الفترة. عرف الجد عددًا من النكات

(1) من أشهر الأشجار الموجودة في أمريكا اللاتينية ويمكن أن يبلغ ارتفاعها 40 مترًا. (المترجم).

يمكِّنه من انتزاع قهقهات جميع أهل القرية، حتى لو طرق على بيوتهم بابًا بابًا. لطالما كانت لديه واحدة جديدة، لكن أحدًا لم يعبأ بسماعها.

لماذا قد يحتفظ أخي بصور لا يظهر فيها؟

يروقني تفسير هذا التصرف على أنه اعتراف جبان بأن وجودي يمثل جزءًا منه أيضًا. بات وجهه في يوم من الأيام مرآتي، فهل كان وجهي هو الآخر مرآته؟ إنها صورة مكسورة، كل قطعة منها تمثل «أنا» مختلفة وسلاحًا محتملًا. قِطَعُ الزجاج التي يجرح بها المرء نفسه.

اعتادت ماما أن تتصل في بعض الأحيان لتسأل عنا، فتناولنا الجدة السماعة ويستحيل البيت نواحًا لا ينتهي، وحينئذ يتخلى خوليان عن انغلاقه ويرضخ للحزن.

فعلتُ ذلك أيضًا، لكن بطريقتي: عاتبتُ ماما لأنها هجرتنا، وسألتها متى ستأتي لتأخذنا، فنحن متغيبان عن المدرسة.

«قريبًا يا بُنيتي، وفي هذه الأثناء أحسِنا التصرف».

سمح أخي لنفسه بسؤال أخير قبل أن يلوذ بصمته مرة أخرى:

«وبابا؟».

حدقت عينا خوليان إلى الهاتف حيث تختبئ كل الإجابات، تلك التي حدسناها في أعماقنا. شكلت أنا وأخي فريقًا، مرة أخرى، يترقب كلمات ماما.

«آهٍ يا بُني».

لم يتضح أي الإجابات قد تُشعر خوليان بارتياح أكبر، ربما هو نفسه لم يعرف. لعله اشتاق إلى بابا رغم كل شيء، مثلي تمامًا. حين كنت أفكر فيه، راودتني ذكريات مروعة، لكنني على كل حال افتقدت حضوره الصاخب والعملاق.

من بين أكثر الأمور سخريةً في حياتي أن بابا كان يُشعرني بالحماية، في حين أنه هو مصدر إحساسي بعدم الأمان.

بعد انتهاء المكالمة هز الجد رأسه متعبًا، وبدا على يديه أن أمرًا ما يضايقه، فقد زم قبضتيه حتى برزت عروقه السميكة كأنهار تتدفق فيها حمم على وشك الاندلاع. استقر الدمار في اليدين الخشنتين لذلك المزارع الشادي. جلد متغضن من الطين والنار، ويدان لعزف الموسيقى أو لشن الحرب.

لو قدَّم لي أحدهم طرف خيط بينما لا أعرف كيف أصنع به شيئًا، لآثرت أن أسحبه حتى انتهاء البَكرة. وَجَبَ عليَّ تعلم الحياكة حينما أصرت الجدة على تعليمي، في أثناء تلك الفترة التي صارت فيها العطلات مع الجدين أمرًا معتادًا. على الأقل حاول خوليان.

كثيرًا ما تراودني هذه الصورة: لا أستطيع أن أصنع شيئًا، لكن يمكنني التدمير.

كانت البطاقة مهترئة من الحواف بسبب تعرضها للمياه، أخرجها الجد فقط ليوفر بعض البيزوهات في السوبر ماركت في آخر أيام الشهر، فنظرت الصرَّافة شزرًا إلى البطاقة ومنحته الخصم.

«شكرًا يا آنسة، طابت ليلتك».

بعد ذلك ركب شاحنة صديقه خوان، الذي طالما أسدى له معروفًا بتوصيله إلى المدينة ما دام سيدعوه إلى شراب.

الشراب: استراحة. جعة باردة. مشروب القصب الكحولي.

الشراب المر: خبر سيئ. زواج ابنة في السادسة عشرة من رجل تفوح منه رائحة الغسول والمعدن.

لطالما قال الجد إن أحد الأشخاص سرق من خوان قدرته على الكلام أيضًا وهو صغير، في أثناء عودته من النهر ذات مساء: «أخبرهما بالقصة يا خوان»، فيكتفي خوان بالنظر إلينا عبر مرآة الشاحنة ويضحك ضحكة صغيرة، «يوم آخر يا فتيان، يوم آخر».

لم يحمل الجد أي تحقيق شخصية سوى تلك البطاقة، وظل يطلق اسم «إنسِن»[1] على «إنابام»[2]. حينما رأيتها للمرة الأولى، في الفترة التي عشنا فيها مع الجدين، واجهت صعوبة في تصديق أن اسمه خوسيه فرانسيثكو وليس خوسيه فقط، فلطالما ناديته بجدي خوسيه.

اعتادت ماما مناداته بلقب «دون»، ومخاطبته بـ «حضرتك»، حتى عندما توبخه. تقول له: «لا ينبغي لحضرتك أن تتحدث عن الأشياء التي لا تعرفها»، فيسكت الجد وهو يشعر بحزن العالم كله مجتمعًا تحت قبعته «السومبريرو». لم يكن بابا يخاطبه بـ «حضرتك»، بل بكاف المخاطبة: «كيف حالك يا خوسيه؟»، كبقيتهم جميعًا. وحدها الجدة هي من نادته «بيبِّي»، وهذا لو كانت في مزاج رائق جدًّا، أما في بقية الأوقات: «أيها العجوز، أيها العجوز الصغير، هيا لا تكن بطيئًا، أهناك أحجار في حذائك أم ماذا؟».

---

(1) Insen: اختصار لـ «Instituto Nacional de la Senectud» وتعني «المعهد القومي للشيخوخة»، وهو أهم جهة مكسيكية معنية بالدفاع عن حقوق كبار السن. (المترجم).

(2) Inapam: اختصار لـ «Instituto Nacional de las Personas Adultas Mayores» وتعني «المعهد القومي لكبار السن»، وهو هيئة مكسيكية حكومية تهدف إلى رعاية المواطنين الذين تزيد أعمارهم على 60 عامًا ومساعدتهم في تحسين معيشتهم، وهي الجهة التي تصدر عنها البطاقة المذكورة. (المترجم).

قائمة ببعض أشياء جدي:

ثلاثة أو أربعة قمصان بيضاء برقبة على شكل الحرف V.

ثلاثة أو أربعة قمصان بمربعات أصبحت واسعة عليه لأنه استمر في فقدان الوزن.

صُدَيريان حاكتهما له الجدة.

بنطالان: واحد رمادي، وواحد بلون القهوة.

طاقية زرقاء.

قبعة «سومبريرو» من سعف النخيل.

محفظة جلدية.

صندل شبه مغلق يبدو من مسافة معينة كأنه حذاء عادي.

كتيب عن تربية الأرانب.

بورتريه لأمه بالأبيض والأسود.

صورتان صغيرتا الحجم: خوليان في سن الثامنة، وأنا في سن العاشرة.

فتى نحيل وقصير يرتدي زيَّ «فريق تيبورونيس»، لا بد أنه في سن السادسة عشرة تقريبًا، لم ينمُ شاربه بعد وثمة هالات شديدة السواد تحيط بعينيه الطفوليتين، يجلس في ما يبدو أنه صالة انتظار ذات مقاعد خضراء متراصة في مجموعات رباعية، وبها أصيص يحوي نبتة بلاستيكية، إنه المستشفى الذي وضعوا فيه ماما.

المستشفى: اليمبوس[1]. ضوء أبيض يطمس بقية الألوان. أحمر، أسود، بنفسجي، أخضر، كلها تختفي في البياض. نظافة. صفحة بيضاء تتيح بداية جديدة.

لم يخبرنا أحد حينها بأن ماما دخلت المستشفى، لكننا اكتشفنا الأمر لاحقًا بالمُصادفة، خلال تنصتنا على محادثة بينها وبين الجدة.

احتفظ أخي بهذه الصورة لأن الجد أهداها إليه قبل موته بفترة قصيرة، توقع من حفيده أن يرث تشجيع «تيبورونيس». سار الأمر بصورة سيئة مع خوليان في هذا الصدد، لكن الجد لم يعرف ذلك قط.

(1) اليمبوس في العقيدة المسيحية الكاثوليكية هو فكرة تعود إلى القرون الوسطى وتقوم على وجود حيز يقع على مشارف السماء تسكنه أرواح البررة من غير المؤمنين، وأرواح الخيرين الذين نشؤوا في أزمنة الكفر ولكن لا جناح عليهم لعدم إدراكهم رسالة السيد المسيح، لكنه لا يمثل جانبًا رسميًّا من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. (المترجم).

الفتى الذي يبتسم للكاميرا رافعًا بإصبعيه علامة النصر، يُدعى بالديمار لوبيث، وتمكن للتو من الصعود بـ «تيبورونيس» إلى دوري الدرجة الأولى. استحق ذلك الشاب الصغير، ذو العظام غير مكتملة النمو، المجد والتوقير، إنه الخلود في صورة احتفظ بها أخي إلى جانب البورتريهات العائلية.

بمرور الوقت، وصل بالديمار إلى صفوف المنتخب الوطني ولعب مونديالين، في ثانيهما تولى قيادة الفريق، وفاز بالكرة الذهبية[1] في العام ذاته الذي التحقتُ فيه بالجامعة.

بدا شديد الشبه بي أنا وخوليان لدرجة أنه كان ليصبح ابن عمنا. ابن عمي لاعب كرة القدم، بطل إعلانات المرطبات ومزيل العرق، ابن عمي المليونير الذي اتهموه بالتهرب الضريبي، ابن عمي الذي لم يسمح له البث التليفزيوني باللعب في أندية أوروبية، الذي اضطر إلى البقاء للتعفن في أندية محلية حيث لم يعد باستطاعته زيادة تحسين فنياته ولا منافسة خصوم في نفس مستواه.

التقط الجد هذه الصورة، أعرف ذلك لأنه أخبرنا في الأمسية ذاتها بأن الجدة طلبت منا أن نحزم أغراضنا.

«ستعودان إلى المنزل يا صغيريَّ، أمكما في انتظاركما».

بعد ذلك اليوم لم نعد إلى منزل الجدين إلا مرات قليلة، في بعض عطلات نهاية الأسبوع، في العطلة الممتدة لـ «يوم الموتى»، وفي ذلك المساء الذي أخبرونا فيه بأن شاحنة خوان، التي كان الجد أيضًا على متنها، انقلبت على قارعة الطريق.

---

(1) هي جائزة يمنحها الاتحاد المكسيكي لكرة القدم لأفضل لاعب في الدوري. (المترجم).

في الأيام الأولى التي تلت خروج ماما من المستشفى، حاولت الاثنتان أن تخفيا عنا ما يحدث، لكنهما لم تكونا متحفظتين بما فيه الكفاية. تولت الجدة علاج ماما خلف الأبواب المغلقة، واعتقدتا أننا لن نطرح أسئلة.

تسخِّن الجدة الماء ثم تتسلل إلى الغرفة بالوعاء، وتلقي بالشاش المستعمل في سلة القمامة الموضوعة في الحمام، حيث تخبئها بالطبع تحت كومة من مناديل المرحاض.

اختفى بابا من دون أن يترك أثرًا.

الأثر: البقايا. إشارة على حدوث شيء ما. دليل. تُرَى ماذا حدث؟!

تحدثت ماما مع مديرة المدرسة وأقنعتها بأن تسمح لنا بدخول اختبارات لكي ننتظم في الدراسة. لم نتحمس أنا ولا خوليان لفكرة العمل لساعات إضافية، لم يعتد الشكوى، وظل غارقًا في صمته المعتاد، أما أنا فيئست من فكرة الجدال.

الجدال: ترجيح كفة ميزان خيالي، محاولة تحريك بندول عن طريق النفخ.

عادت الجدة إلى منزلها بعد ذلك بأسابيع، وبحلول ذلك الوقت عدنا إلى سابق عهدنا، حتى ماما استعادت لونها.

لم تخبرنا ماما قط بما حدث في المستشفى، ولا ما حدث قبل ساعات من دخولها، حتى جاء يوم بدأت تتصرف فيه كأننا نعرف كل شيء.

في المساء الذي أتممت فيه خمسة عشر عامًا، طلبت مني أن أساعدها لتطهير جرح في ظهرها تأخر التئامه.

بدا ظهر ماما كأنه كوكبة مريعة، إذ امتلأ بندوب تنوعت ألوانها وبرزت بعدة أشكال. رسمتُ باليود رسالة على جلدها، شيء أشبه بصرخة مختنقة، مثل البكاء الذي انهمر من عينيَّ في بعض الليالي بلا سبب واضح.

الندبة: تذكير. ماما.

تُصافح الجدة المشتري، ذلك السيد الذي نسيتُ اسمه لكنني أتذكر صوته الأجش والمصطنع الذي اعتاد التعامل مع الناس.

يلتمع خاتم زمردي وسط غابة يده المشعرة، بينما ينظر إلى الجدة التي تبتسم خفية. من الغريب رؤيتها من دون مئزرها، كما أن شفتيها مطليتان وهذا أيضًا غريب.

بعد رحيل بابا عن البيت، استولى خوليان على كاميراه وأمضى وقته في التقاط صور لم تبخل علينا الجدة بالكشف عنها لاحقًا. من يدري أين انتهى المطاف بتلك الصور، ثمة المئات منها.

أتصور أن خوليان احتفظ بهذه الصورة لأنها لحظة مهمة للجميع، لحظة بيع منزل الجدين.

مكتب الكاتب العدل 41، أجوستين لوجو وخوان إجناثيو لوجو، الأب والابن، حروف ذهبية على خلفية بيضاء.

في ذلك اليوم مشيت مع خوليان حتى وسط المدينة، حيث خلت الشوارع من الناس بسبب موسم العطلات. وصلت ماما والجدة في سيارة أجرة، واجتمعنا في محل مثلجات «جاليثيا» ثم انطلقنا من هنالك نحو مكتب كاتب العدل.

أوضح لوجو الابن أن توقيع الجدة ليس شرعيًّا، وارتأى أنه من الأفضل أن تبصم، فأطاعت الجدة، ثم مسحت الحبر من إصبعها بمنديل.

البصمة: علامة، امتداد، خلود. لا يمكن محو ما لا يُرى.

بعض الأمور التي حدثت -بسرعة فائقة- قبل موعدنا عند كاتب العدل:

سافرنا من القرية إلى المدينة في حافلة لم تكد تسمح لنا بالصعود حاملين كل هذه الصناديق والحقائب.

أخرجنا زخارف فناء منزل الجدين كهدايا، وقَبِلت الجارة أن تأخذ الأرجوحة لكي يلعب أبناؤها.

مسحنا أرضية البيت مثل أي يوم عادي، ونظفت الجدة المطبخ بعناية كأنها تفكر في استخدامه مجددًا.

حزمنا كل ملابسها ومجموعتها السرية من الأقراط الفاخرة.

قالت لي ماما: «سيتعين عليكِ أن تفسحي لها مكانًا في خزانتك».

الخزانة: غرفة. أن أفسح لها مكانًا في الروتين المتسارع والأناني لحياتي المراهقة.

رأينا الجدة تغرق في البكاء داخل المطبخ.

رأينا الجد للمرة الأخيرة.

بعد مجيء الجدة لم نمضِ إلا فترة قصيرة في منزل شارع فلوريستا، إذ كف بابا عن دفع الإيجار وأخبرونا ذات يوم بأن علينا الرحيل إلى مكان آخر، فبدأنا نعتقد أننا لن نراه مجددًا.

كان منزل فلوريستا باردًا ومظلمًا وخشيت ماما من أن نفتقده، لكن الحقيقة أن أحدًا لن يشتاق إلى ذلك المنزل الذي كان متحفًا للذكريات التعيسة وامتلأ بالأشباح.

عثرت ماما على شقة في مبنى العائلات السكني المسمى «سيجلو 21» مكونة من ثلاث غرف، ما يعني أنني سأظل أتشارك الغرفة مع الجدة. حصل خوليان على غرفته الخاصة، لكنه قضى أوقات المساء مندسًّا في غرفة ماما يشاهد التلفاز.

الغرفة: مساحة مادية أو ذهنية. كل واحدة من حجرات دماغ أخي. بعضها مغلق بمفتاح.

حصلت ماما على عمل في عيادة بيطرية، فأدركنا للمرة الأولى أنها تحمل شهادة كفنية بيطرية نالتها بعد دراستها الثانوية، في حدود الفترة التي تزوجت فيها من بابا.

اعتادت الجدة أن تشخر ليلًا، أما صباحًا فأفعمت الجو برائحتها الفاكهية الحلوة، كما داومت على الصلاة لعشر دقائق قبل النوم وبعد الاستيقاظ. فاحت من قدميها رائحة كريهة في الأيام المشمسة لأنها

رفضت وضع بودرة القدمين، وانتعلت حذائي الرياضي كشبشب تدخل به الحمام في منتصف الليل.

أغاظتني تلك الأمور في ذلك الحين، واليوم هي ذكريات أكنزها. تكلمت ذات مرة عن ذلك الأمر مع خوليان.

حين أقول إنني تكلمت مع خوليان، فما أعنيه حقًّا أنني تكلمت وهو استمع، هكذا كانت محادثاتنا.

الكلام: إرسال رسالة. الصمت أيضًا رسالة. عدم الكلام كلام.

تظهر الجدة بمئزرها الأحمر وفستانها الأسود وقفازيها المطاطَيْن، وشعرها معقوص إلى الأعلى ويوحي بخفتها. لا شك أن خوليان تمكن من اقتناص جوهرها في تلك الصورة.

بعد شهرين من انتقالنا إلى مبنى العائلات السكني، زَرَعَتْ شجرة برتقال في الشريط الفاصل الواقع في منتصف الطريق.

«لكانت هذه رغبة جدكما».

تقف في الصورة إلى جانب شجيرة تصل إلى خصرها، وثمة مجرفة صدئة على الأرض ودلو فارغ ينبغي ملؤه بالماء.

لم تسمح لنا بمساعدتها، «لا يا صغيران، هذا أمر عليَّ فعله بنفسي»، وقضت المساء بأكمله تحفر حُفرًا من دون أن تقتنع بأي منها، فظهرت تلك الفتحات في الصورة مغطاةً كقبور صغيرة.

قبل ذلك بأسابيع، كنا قد دفنَّا الجد في المدافن الموجودة بجوار كنيسة القرية، حيث أرادت الجدة أن تزرع شجرة البرتقال، لكن سلطات الكنيسة لم تسمح لها بذلك. خيب الرفض أملها، لكنها سلَّمت على الفور بأن الأفضل أن تزرع شجرة البرتقال بالقرب منها، لكي تراها يوميًّا بل وتتحدث معها بين الحين والآخر.

خلال الساعات التي قضتها الجدة في صنع الفتحات وتغطيتها، بدأ جيران المبنى ينزعجون. كانت القواعد شديدة الصرامة فيما يتعلق بإحداث التغييرات والتجديدات في المبنى، ولا سيما فيما يمس المنظر

العام. أتت عجوز من الطابق الثالث، وهي أرملة كالجدة، واقتربت للتحدث معنا، بدا فضولها نحو ما نفعله ناجمًا عن شعورها بالملل، فشرحت لها ماما الوضع بهدوء حتى تفهمته، ثم صعدت إلى شقتها وعادت بعلبة من البسكويت الذي تذوقته أنا وماما بسرور، بينما رفض أخي بحركة من رأسه، حاولت الأرملة إقناعه وهي تحرك يديها كأنها لاعبة بيسبول تشرح الخطة من بعيد، حينها أدركنا أن جميع سكان المبنى يعتقدون أن أخي أصم وأبكم.

ضحكت الجدة من سوء فهمها، بينما تضايقت منه ماما. لا أعرف ما الذي دار حينها في رأس خوليان، لكن لا يسعني إلا التفكير في أن شيئًا انكسر بداخله في ذلك اليوم، شيئًا كان مكسورًا من ذي قبل.

يأكل أخي عصا من المثلجات، جالسًا على المقعد المعدني لحديقة لا أعرفها، إنه في مدينة أخرى. لا بد أن ماما هي من التقطت هذه الصورة خلال إحدى عطلات نهاية الأسبوع التي سافرا فيها إلى العاصمة للخبير الذي سيعيد إليه القدرة على الكلام.

لا أتذكر أنني تعاملت كثيرًا مع أخي في تلك الفترة، فمن قبل رحيل بابا عن البيت وهو دائم الالتصاق بماما؛ أخذ يتبعها إلى كل الغرف كجروٍ مدرَّب، وبعدما بدأت ماما عملها في العيادة البيطرية، شرع خوليان يحوم حول الجدة، أمضيا ساعات جالسَين أمام التلفاز يشاهدان المسلسلات وبرامج المسابقات، وظفته الجدة مساعدًا لها في الطبخ، كما طلبت منه الإمساك بكُرات الصوف بينما تمارس الحياكة. كان بابا ليغتاظ جدًّا من تلك الديناميكية، إلا أننا لم نسمع عنه خبرًا طيلة أشهر. ثمة مرات نظرتُ فيها إلى أخي من زاوية معينة، وانتابني شعور بأنه يستعيد طبيعته ثم يفقدها مرة أخرى.

الطبيعي: أن يجيب الشخص حين تسأله عن شيء ما. أن يحييك عند وصوله ويودعك عند خروجه.

غير الطبيعي: أن ينظر إليك الشخص بعينين بهائميتين جاهلًا لغتك. أن يشير بإصبعه لكيلا يسمي الأشياء. أن يومئ برأسه لكيلا ينطق بنعم.

كانت تلك شهورًا من الإصلاحات بدأنا فيها علاجًا تقويميًّا للقدمين، فشرعتُ أستخدم نعلين داخل الحذاء، وانتعل خوليان حذاءً صلبًا برقبة جعلته يبدو مضحكًا، وهو يظهر في الصورة منتعلًا إياه.

لم يستطع أن يشكو لأنه لا يتحدث، ولم يسعه إلا أن يكز أسنانه. كان عالقًا وبدأ يغيب عن ناظره مخرج متاهته الخاصة، وصار جليًّا أنه يحتاج إلى نوع من الرعاية المتخصصة.

ماذا لو تلقاها أخي؟

يصعب تخمين الأمر. ظل علاج أخي مُعَلَّقًا كحال العديد من الأمور الأخرى. تجمد العالم بأسره فجأةً في مساء ذلك الأحد الذي عاد فيه بابا إلى حياتنا، مستعدًا ليقلب كل شيء رأسًا على عقب.

تشخيصات كان بمقدورها تفسير صمت أخي:

اضطراب نقص الانتباه.

اضطراب طيف التوحد.

اضطراب ما بعد الصدمة.

اضطراب الإجهاد الحاد.

صدمة نفسية.

تلف في الدماغ.

خلل إدراكي بسيط.

اكتئاب سريري.

هلع.

نوبة غضب.

عدم نضج.

بلادة.

حظ تعيس.

دخل بابا الشقة للمرة الأولى، واستولى عليها في غضون دقائق قليلة. جلس في مواجهة ماما، حول منضدة المطبخ، وشغلت أنا وخوليان الكرسيين الباقيين، بينما ظلت الجدة واقفة تفرط أكواز الذرة على لوح التقطيع.

بدا بابا كبيرًا بصورة استثنائية، ساقاه مفتوحتان ويده متكئة على فخذه باسترخاء. لطالما كان طويلًا وغليظًا، لكن ضآلة الشقة عَمْلَقَتْ وجوده.

«المكان صغير جدًّا هنا، أليس كذلك؟».

خيَّم الصمت، وبدا بابا كأنه يريد سحقنا بقبضتيه الحجريتين.

«حسنًا، ماذا يوجد للعشاء؟».

رمقتني ماما في انتظار رد فعل مني، ثم رفعت يدها إلى فمها فانتبهتُ إلى أنها توقفت عن قضم أظفارها طيلة الأشهر الفائتة.

كنت حينها في السادسة عشرة وقد أصبحت سليطة اللسان، اعتبرني مُعلِّمِيَّ ذكية، لكنهم انتقدوا سوء سلوكي الذي وصفوه بالفظ، لم يعرفوا أن الأمر استغرقني وقتًا طويلًا لصناعة درع أدافع به عن نفسي أمام الجميع.

نهضت وفتحت الثلاجة فوجدت بقية قليلة من يخنة ذلك اليوم: دجاج بصلصة «مولي»، سخَّنتها في المايكروويف، ولم أتحلَّ بالشجاعة لألقي بها في وجهه، وضعتها بلطف على المنضدة وناولته ملعقة.

بعدما أنهى عشاءه، أجرى بابا ترتيباته كما اعتاد أن يفعل دائمًا.

«واضح أن هذا المكان لا يسعنا، ما رأيك لو أخذت الصغيرين في عطلات نهاية الأسبوع؟ أنا أستأجر بيتًا في وحدة «التقدم» السكنية.

التقدم: التحسُّن، التطور. قبل وبعد. تَقَدُّم شخص يعني تدهور الآخر.

قلتُ وأنا أحدق إلى المنضدة: «لا أريد الذهاب».

تسارعت أنفاس ماما.

رد بطريقة وحشية فظيعة: «هل يبدو أنني أسألك؟».

استغرقت رائحة غسوله وقتًا حتى غادرت الشقة، وانكسر توازننا الهش.

لا، لم يضع طبقه المتسخ في غسالة الأواني.

لا، لم يقل شكرًا على الطعام.

لا، لم يسألنا عن أحوالنا.

لا، لم يشرح لنا أين كان طيلة كل تلك الأشهر.

لا، لم يحزن على وفاة الجد.

لا، لم يعتذر عن تصرفاته.

لا.

في تلك الفترة لم أتوقع شيئًا من بابا، رغم تأكدي من قدرته في أي لحظة على فعل شيء في غاية الخطورة والطيش، مثل إلقاء خوليان من النافذة أو تركي أسبوعًا بلا طعام كمحاولة لإنقاص وزني.

اتضح أنه لم يهيئ لنا مكانًا في منزله، أرادنا أن ننام في استوديو بارد تملؤه الرطوبة.

في ليلتنا الأولى هناك، تشاجرت مع خوليان على من يستحق المرتبة ومن يستحق أرجوحة النوم، حتى نفد صبر بابا وأوحت إيماءاته بأنه يوشك على مهاجمة أخي: منخران مفتوحان، جبهة حمراء، حركات مباغتة للوجه واليدين. اندفع نحوه بسرعة كما فعل ألف مرة قبل ذلك.

لكن كان ثمة شيء مختلف، مختلف جدًّا.

السيطرة: القدرة، الإخضاع. احتواء المرء لذاته، وهيمنته على الخصم.

فقد بابا السيطرة على نفسه.

فقدان السيطرة: الاختلال. أن ينظر المرء في المرآة ولا يتعرف على نفسه.

لا أعرف ماذا دار في رأس أخي لحظتئذ، لكنني وضعت نظريات عديدة لهذا الأمر على مدار السنين.

فاز خوليان بهذه المعركة الحاسمة بثلاث حركات صائبة: في الأولى رفع نظره، وفي الثانية كسر الصمت، «لا»، وفي الثالثة خرج من الباب.

الرفض: أبدًا، إطلاقًا، كفى، توقف.

الرفض: لا.

لم أنم جيدًا ليلتها مخافة أن يستيقظ بابا في منتصف الليل للانتقام مني، لأنه يستطيع إيذائي بطرق عديدة إلى درجة أن لكمةً من قبضته كانت أقل مخاوفي.

في الصباح التالي أعدَّ لي أروع إفطار ممكن: بيض مخفوق وعصير برتقال، بل وتركني آكل النقانق ولحم الخنزير المقدد، كما وافق أن يشاركني قطعة من الخبز الحلو[1]، ولم يلمِّح إلى بدانتي حينما قلت بأنني شبعت.

لم يعد خوليان إلى منزل بابا لكنني عدت، أكثر من مرة.

(1) نوع من المعجنات المكسيكية. (المترجم).

لم يسهل عليَّ أن أعرف هل تريدني ماما بالقرب منها أم تعتبرني عائقًا، ولم يسبق أن كنا متحدتين على نحو استثنائي. لطالما أحسست منذ صغري بأنها لا تهتم إلا بخوليان؛ لم نتحدث قط عن شيء سوى أخي أو البيت أو المدرسة أو الجدين، لكنها احتفظت لخوليان ببعض القصص عن حياتها قبل الزواج. أحببت الاستماع إليها من بعيد، وكنت أعرف أنها لا تمانع ذلك.

احتفظ خوليان هو الآخر بكلماته من أجلها، فغالبًا ما كانت الجمل القليلة التي يقولها بين الحين والآخر موجَّهة إلى ماما.

يحتفظ: ينتقي، يدخر. أنا وأنت معًا في هذه البقعة الصغيرة من العالم، والبقية خارجها، لسنا في حاجة إليهم.

ماما وخوليان.

خوليان وماما.

ومن ناحية أخرى تحيط الجدة بهما، إنه مثلث، فريق ثلاثي لا يسعني.

لست أبحث عن مبررات لنفسي، فمنذ طفولتي المبكرة وأنا أعرف أيَّ نوع من الأشخاص هو بابا، كما أنني استسلمت للوقوع في شَرَكه. حاولت أن أرسم له صورة قاسية، لكن في سن السادسة عشرة أهدى بابا إليَّ الحضن الذي طالما نبذني ولم يقدمه لي أحد آخر، فما الخطأ إذن في قبوله؟

لطالما كان الحب خيانة لأنه يستوجب الاختيار، وكل اختيار يحمل تنازلًا. أسوأ المشاهد هو وقوفي أمام مرآة وخيانتي لنفسي؛ لذا تبدو فكرة حب الآخر أكثر احتمالًا بشرط التنازل عن غيرها من الاحتمالات. أحب أخي بلا شروط، وأحب شريكي ما دمت أراه عاقلًا.

لا مهرب من مفترقات الطرق حيث تنفتح وتنغلق عوالم أمام أعيننا، ويموت جزء منا بعد كل اختيار.

الحب معضلة أبدية ذات طبيعة أخلاقية وأدبية، اختبار للتفكير حيث لا توجد إجابات خطأ، وكل الطرق تؤدي إلى المعاناة.

منزل من طابق واحد، نصفه خشبي ونصفه الآخر من الخرسانة، بينما يتراكم السُّخام على ألواح السقف، ثمة لافتة على الحائط تحمل كلمات مكتوبة بشكل خاطئ، تشير إلى كون البيت مطبخًا اقتصاديًّا وتستعرض قائمة الطعام: «بانسيتا»[1]، «لومو»[2]، «سدق»[3]، «فاصولياء في القدر»[4].

يحيرني معيار أخي للاحتفاظ بصور معينة. أتذكر بوضوح سبب إهدائي إليه هذه الصورة، يومها طلبت من خوليان أن يعيرني الكاميرا، التي صارت ملكه، لأنني ذاهبة للأكل مع بابا. حمَّضت الجدة الفيلم لاحقًا وأريت أخي الصورة ليعرف نوع الأمور التي نفعلها أنا وبابا.

قلت له: «أعتقد أنه صار مختلفًا بالفعل»، وبالطبع لم يرد بشيء.

---

(1) طريقة نطقها بإسبانية إسبانيا القياسية «بانثيتا»، وهي يخنة مكسيكية تقليدية تصنع من معدة البقر بالإضافة إلى الفلفل الحار والليمون والبصل والأوريجانو. (المترجم).

(2) طبق يتكون من الأرز والبطاطس وشرائح اللحم والبيض والسلطة. (المترجم).

(3) تعمدت كتابة كلمة «سدق» بطريقة خطأ كما هي مكتوبة في النص الأصلي. (المترجم)

(4) «فاصولياء في القدر»، أكثر الأطباق شيوعًا في المكسيك، ويتكون من الفاصولياء مع الذرة والفلفل الحار. (المترجم).

ما زلت لا أعرف رد الفعل الذي توقعتُه إثر تعليقاتي. حسد، شفقة، تفهُّم، ما الذي بحثت عنه؟! أن نتعايش نحن الثلاثة كعائلة؟ لم يحدث هذا قط، كنت أخدع نفسي.

لا أعرف أيضًا متى حلت اللحظة التي افترضتُ فيها أنني مسؤولة عن إلصاق المكسور.

يلصق: يدمج، يجمع. أن توجد العائلة من جديد. إقناع جميع الأطراف المعنية بأن يحب بعضهم بعضًا.

لطالما أحبَّ بابا اصطحابي إلى ذلك النوع من الأماكن الريفية حيث يُعدون الطعام بطريقة حِرَفية: فاصولياء مدخَّنة، وذرة مجروشة على الحجارة[1]، وقهوة في القدر[2] مع قطعة ترابية اللون من حلوى «البيلونسيُّو»[3]. أعجبته معرفتي لتلك الحقيقة، كما أحب فكرة توفير بعض السنتات. لم يتقبل وزني الزائد فحسب، بل صار يتولى أمره؛ إذ عرف أنني أفرط في الأكل وأن تلك الأماكن ستقلل من نفقاته، لذلك استحق الأمر عناء نصف ساعة من القيادة في طرق وعرة، لكيلا يتسبب جوعي الذي لا يُسبر غوره في جرح محفظته.

صار ذلك المكان من الأماكن التابعة لمنطقة بابا، أماكن أخرى: محلات السوبر ماركت، تلك السيارة «الجيتا» السوداء التي امتلكناها نحن الأربعة ثم صارت له وحده، المطاعم الصغيرة التي اعتقدت فيها أنني سعيدة وأحب أبي وأستمتع بالطعام الذي يهديه إليَّ.

---

(1) إحدى الطرق التقليدية لطحن الذرة في المكسيك. (المترجم).

(2) طريقة تقليدية لإعداد القهوة في المكسيك. (المترجم).

(3) حلوى تقليدية مكسيكية تتراوح نكهتها بين طعم الكراميل المحترق ومشروب الرم، وتُقَدَّمُ مع مختلف الأطعمة. (المترجم).

كنت أعرف أن حبه خيانة، وكذلك تمنّي أن تسامحه ماما. ظل أخي منغلقًا على نفسه، وأمضى الأيام محبوسًا داخل عقله في وحدة وصمت، بينما شاركت بابا الصخب، وقرع الطناجر، وصيحات السيدات، والموسيقى الشعبية، وصليل ارتطام كأس جعته بمشروبي المرطب، والأهم من ذلك قهقهاته كوغد فاتن. قهقهات قسوةٍ لطيفة ذات تواطؤٍ خائن، وحبٍّ عنيف، ومتهور، وخطير، ومنافق، لكنه حب في نهاية المطاف.

أشياء ورثها خوليان عن ماما:

بنيته النحيفة شبه العظمية.

رهافة حركاته.

حاجباه المدببان.

الشعر الرقيق المسترسل.

أصابع قدميه.

الصمت.

الولع بالحلويات.

حب الحيوانات.

النظرة المتحاشية.

سهولة الاعتذار.

الهالات.

الخوف من التعثر.

مخاوف متنوعة.

أشياء ورثتُها عن ماما:

هيئة وجهي.

فمي وبعض التعبيرات.

منذ عمل ماما في العيادة البيطرية، أخذ المنزل يمتلئ تدريجيًّا بالحيوانات، أولها قط صغير أسود أسمته ماما موستاتشو الثاني. على الرغم من عدم وجود بقعة أسفل أنفه، فقد استحق أن يرث عرش موستاتشو الأول، فارتضيناه خلفًا لذلك العهد الغابر.

الوريث: الزوج، الابن، الحفيد. التأثير، العدوى. ورثت عن أبي عينيه ومهارة التلاعب.

حظينا بسلاحف وببغاء والعديد من الكلاب. تواصل أخي معها بلغة ليست بشرية ولا حيوانية، بل شيء في الوسط. لطالما قالت ماما إن الببغاوات ذات الرؤوس الزرقاء تتكلم فعلًا، وفي أي لحظة سيبدأ ببغاؤنا في الصياح والتفوه بالبذاءات.

لطالما أحببت الحيوانات الأليفة، وأمضيت ساعات في ملاعبتها، ودافعت عنها ضد الجيران الذين يشتكون من أصواتها، لكنني ظللت أتعجب من أن جميع مواهب الحماية والرعاية التي تحلت بها ماما توقفت عند قطيع من الحيوانات، وعلى النقيض، لم أحظ أنا بأي عناية خاصة.

لم يَرُقْ بابا أن تذهب ماما بخوليان إلى الطبيب، قال إنه مصاب بمشكلة سلوكية، وهدد بحرمان ماما من النفقة التي يرسلها إليها. وعلى الرغم من ذلك، حتى بعد امتثالها لأوامره، ظلَّت النفقة تأتي منقوصة، وفي تلك الأثناء ظل المنزل يمتلئ بالحيوانات.

قللت الجدة النفقات بإعداد اليخنات العجيبة، وقطع لحم الخنزير بالإنشيلادا، والشايوت المقلي بدلًا من البطاطس المقلية، ومن حولها الحيوانات.

لم يبقَ في النهاية معنا سوى الببغاء، ولا أعرف أين انتهى المطاف بالبقية. أعتقد أن ماما وخوليان أخذاها إلى أحد الملاجئ، بعد الشجار الذي صاح فيه بابا بأننا لو لم نتخلص من الحيوانات فإنه مستعد لإحراق المنزل.

شعرتُ بأن الشجارات تزداد سوءًا لأنني بقيت في المنتصف، بدت الأمور أبسط حينما كان فريقي محدَّدًا بوضوح وهوية الشرير أمرًا لا يقبل الجدال. أما الآن، فبعدما تلاشت الحدود لم يعد هناك شيء سهل.

الفريق: العائلة، القبيلة، الضيعة، العشيرة. الفريق مجموعة الناس الذين يمكن الوثوق بهم. قد يكون فريقي أنا فحسب، وحينها ستكون المعركة ضد الجميع.

ما من شيء بشري تقريبًا، مما نصنفه اجتماعيًّا بحتًا، يمكن وضعه في مصطلحات موضوعية: الحب، الولاء. ما من ميزان يشير إلى وزن وأبعاد تأنيب الضمير الذي أحمله على ظهري من تلك الفترة التي قررت فيها أن أحب بابا رغم كل شيء.

المحادثات لا تعرف المُطلَق. ربما نستطيع حسابها بنسب مئوية، رغم أننا لسنا مضطرين إلى ذلك.

خلال محادثاتي مع أخي، فإن 99% من الكلمات كانت لي.

«ألن تقول شيئًا؟ اللعنة يا خوليان، أنا أحدثك عن شيء في غاية الأهمية».

مهم: ذو صلة، عاجل. عيد ميلاد ماما، رحيل بابا، موت الجد، سعر قارورة المياه، أخلائي.

لكن خوليان لم يتكرم عليَّ ولو بكلمة واحدة. في حالات استثنائية قال بعض الجمل التي لم تعنِ لي شيئًا.

«حسنًا».

«نعم».

«أعتذر».

لا تعكس النسب المئوية بأي حال جودة المحادثة، ولا يمكن حساب هذا الأمر لأن معياره أطراف الحديث.

على سبيل المثال، اعتاد بابا أن يتحدث قليلًا معي ما دام الأمر لا يخص تنظيم الأمور اللوجيستية.

«أحضري المناديل».

يظل هكذا حتى ينضم طرف ثالث إلى المعادلة، فيصبح عندها أكثر الرجال ثرثرة في العالم، ولا سيما في وجود امرأة، حتى لو كانت غريبة لن نراها مجددًا. كان حنو بابا عليَّ مجرد عرض مسرحي، أدركت ذلك ورضيت به؛ تجلس المرأة إلى طاولتنا فيقدم إليها بابا من طعامنا، ثم يسرد إنجازاتي المدرسية ويبالغ فيها. يتباهى برقة مشاعر أخي وولعه بالتصوير، ويدَّعي أن خوليان ليس موجودًا معنا لأنه مشغول بالدراسة.

لطالما افتتنت النساء ببابا، ورغم أنه اعتاد التحدث عن خطط رحلات لن تتحقق أبدًا، فإن الفكرة المجردة لتلك النزهات كفت لإسعادي حينها.

لا يمكن قياس السعادة، وأحيانًا لا أومن بوجودها حتى.

لا يمكن قياس خيبة الأمل أيضًا، وهذا جيد؛ إن وزنها ثقيل جدًّا، وربما تكون عواقبها هي الشيء الوحيد القابل للقياس: دموع، أيام بلا مفارقة للفراش، قرار انتقالي بعيدًا، بعيدًا جدًّا عن تلك المدينة..

أقف في وضعية انتباه، بعدما أدى النعلان التقويميان عملهما جيدًا. أرتدي الزي المدرسي: كنزة طويلة الأكمام عليها شعار المدرسة «CBTIS 9»، وهي إحدى آخر المدارس الثانوية التي أجبرت طلابها على ارتداء زي موحد وتحية العلم.

أشكِّل جزءًا من الموكب الاستعراضي حيث أحتل المؤخرة اليمنى، وأكاد لا أميز نفسي في الصورة. تظهر في الأمام كارمن موتا حاملة العلم وهي ترتدي قفازات بيضاء وتحيط بها أربع فتيات أخريات لا أتذكر أسماءهن.

أدهشني احتفاظ أخي بهذه الصورة. كنت حينها في الصف الثالث، ما يعني أنه في الصف الأول، أخذ الكاميرا إلى المدرسة لتصوير لحظتي العظيمة، فطالما اعتمد هذه الطرق الغريبة للتعبير عن المحبة.

كارمن موتا هي الفتاة الوحيدة من المدرسة الثانوية التي جمعتني بها علاقة صداقة أو ما شابه ذلك، وهذا فقط لقرب المسافة بين منزلينا. أتذكر أنها عانت الأمرَّين من الجُمَل الثانوية[1] فعرضتُ عليها المساعدة. اعتادت المجيء إلى منزلي بعد المدرسة، وقالت إنها لطالما تساءلت كيف تبدو منازل مبنى العائلات السكني من الداخل.

---

(1) Las oraciones subordinadas: نوع من الجمل في علم اللغويات الإسباني. (المترجم).

أعدت الجدة فطائر للوجبة الخفيفة، باستثناء تلك الأيام التي جاء فيها أحد الجيران إلى المنزل لتقدم له تدليكًا علاجيًّا؛ إذ انتشر في المبنى خبر وجود معالجة في بيتنا.

في يوم الاثنين الذي أقيم فيه الحدث، جاء بابا وماما لرؤيتي. لم يكن أمرًا جللًا، بل مجرد موكب استعراضي عادي. ومع ذلك، أطلق بابا العنان لتلك الحرب الباردة التي وترتنا جميعًا، وعزم على إثبات أفضليته في لعب دوره كأب، حتى وجدت ماما نفسها طرفًا في معركة من دون أن تدرك، تُنَافِسُ مرغمة في برنامج تليفزيون الواقع الذي هو حياتي.

أتى كل منهما على حدة وجلس بعيدًا عن الآخر. بعد نهاية السلام الوطني، اقتربت كل فتاة من عائلتها لتتلقى التهاني. كنت قد شهدت ماما تصفق خلال الخطبة فاتجهت نحوها أولًا، أردتُ سماعها تقول إنها فخورة بي لكن الحشد أعاقني عن السير بسرعة أكبر حتى وجدتُها أخيرًا، ورأيتها تجلس بجوار أخي وتمسك بيده. بكى خوليان مجددًا، وانغلق على نفسه مجددًا. احتوى المشهد على كل الحنان والطف الذي يمكن لأم أن تقدمه لابنها، كل المودة والاهتمام اللذين تعطشت لهما، لكنني لم أتلقاهما لأنني أستطيع الكلام، لأنني لم أكن حيوانًا يحتضر.

انتظرني بابا في الباحة على مسافة عدة أمتار من هناك، عاقدًا ذراعيه ومستندًا إلى أحد الجدران. امتلأ الجو برائحة غسوله الذي ترك وراءه أثرًا حامضيًّا، عانقَني وقبَّلني مئة قبلة، هذه مكافأتي لأنني اخترت الفريق الصحيح. أنا وهو، لا أحد سوانا، ثنائي من الرابحين بالفطرة، وفي الخلف بقي الضعفاء والفاشلون، ولا مزيد من الصمت.

كانت نظرة بابا مغوية، كحال جميع الحرائق. يبدو مشهد النار جميلًا لأنه يشع خطرًا؛ إذ يمكنك أن تحدق إليه إلى الأبد أو تتركه يلتهمك.

وددتُ أن أعيش في إحدى قصص بابا، ما من شيء كان سيُشعرني بالفخر أكثر من تحولي إلى إحدى شخصيات حكاياته أو ضحكاته أو حفلاته.

لم يحدث ذلك قط، واكتفيت بدور شخصية ثانوية على أقصى تقدير.

ثانوي: مساعد. قابل للاستبعاد، وفي الوقت نفسه لا غنى عنه. بفضل الشخصية الثانوية يزداد لمعان البطل.

على الرغم من ذلك، أقنعني بابا بأن دوري أهم من أي شخصية أخرى؛ إذ لعبت دور الجمهور الذي يتمتع بميزة إبداء الرأي، فـ«الشو»[1] بأكمله مرهون بنيل إعجابه.

كان تصفيقي سهلًا ومضمونًا، لكن راقني تخيُّل أنه ذو قيمة.

عند النظر إلى حريق، يسهل تصديق أن كل الأمور تحت السيطرة.

---

(1) وردت في النص الأصلي مكتوبة «show» بالإنجليزية، أي «العرض»، وفضلت الإبقاء عليها بهذا الشكل حفاظًا على روح النص. (المترجم).

أتحقق مرةً تلو الأخرى -بصورة قهرية- من طُرق الهروب. أقنع نفسي بأنني لو ركضت فسوف أتمكن من التفوق بسرعتي على ألسنة اللهب وإنقاذ حياتي في عمل بطولي خارق أخير.

كانت نظرة بابا هوة سحيقة، ولمعانها الساطع خدعة.

يصطدم الضوء بالزجاج فينعكس حتى يضيع في الأبدية، بينما يقف بابا أمام المرآة ليغوي نفسه.

بعض الأشياء التي ورثتُها عن بابا:

الجلد المشعر.

العظام العريضة.

القدرة على الإيذاء.

المرارة.

الولع بموسيقى «الرانشيرا»[1].

الشهية.

الغطرسة.

موهبة الخيانة ببالٍ مرتاح.

بعض الأشياء التي وددت أن أرثها عن بابا:

مهارته أمام المقود.

حسه الفكاهي.

فصاحته.

---

(1) نوع من الموسيقى الشعبية المكسيكية (المترجم).

ينظر الببغاء إلى سقف قفصه بينما يقف على رجل واحدة. كشف وجهه عن تعبير ساخر، ذلك الذي يبدو على الببغاوات حينما يقترب منها إنسان بنية الحديث. يتعارض رأسه الأزرق الصغير مع صفار عينيه الذي يفوق لمعانه أَرَقَّ القطع الزجاجية.

كان الببغاء رفيقًا لأخي خلال فترة من الزمن، ثم صار أعز أصدقاء الجدة. تناوب الاثنان على تعليمه، والتقط له خوليان آلاف الصور التي لم يبقَ منها اليوم إلا هذه.

بدا جميلًا من جميع الجوانب، ولأسباب عديدة كان أظرف الحيوانات التي مرت على المنزل، وألطف وأكثر امتنانًا من أي كائن بشري.

أرادت الجدة أن تتحادث مع الببغاء، مع هذا الطائر العنيد الذي لم يسبق له أن نطق كلمة واحدة. وضعت يدها في القفص لمداعبة عنقه بإصبعيها وبذلت جهدها في تملقه.

«ما أظرفه، ما أروعه، ما أحلاه. من هو أجمل الطيور كلها؟»

نظر الببغاء مرتبكًا إلى تلك العجوز الغامضة التي تدندن أغاني «البوليرو»[1] وهي تزيل أوراق الصحف المتسخة من القفص، لم

(1) لون غنائي نشأ في شرق كوبا في أواخر القرن التاسع عشر وانتشر في جميع دول أمريكا اللاتينية. (المترجم).

يوجِّه إليها كلمة واحدة، لكن شيئًا ما في طريقة نظره إليها ألمح إلى وجود نوع من الصداقة بينهما.

مخلوقان يوطدان علاقة غير مفهومة. صَموتٌ هو؛ لديه مَلَكة الكلام لكنه لا يستعملها. صاخبةٌ هي؛ نبرة صوتها انفجار يدوِّي في كل الأنحاء. الببغاء والجدة. تكافل، مودة، خيطٌ خفيٌّ. أنا وأخي، مثلهما تمامًا.

لم يخبرني أخي قط بأنه يحبني، لكنه عوضًا عن ذلك فعل هذه الأمور:

أعدَّ لي كعكة في عيد ميلادي الثامن، بمساعدة ماما.

ساعدني في عمل نموذج مصغر للنظام البيئي لغابة في الصف السادس.

أهدى إليَّ قفازات دراجته حينما بدأت أذهب وحدي إلى المدرسة الثانوية.

التقط لي العديد من الصور من دون أن ألاحظ.

كلما ذهب إلى متاجر «أوكسو»[1] اشترى لي شيئًا.

لم ينتقدني حينما اخترت بابا.

عانقني حينما ماتت الجدة.

عانقني في مرات أخرى.

حاول فعل ما أردته أن يفعله.

وافق على الانتقال للعيش معي.

---

(1) «Oxxo»: سلسلة متاجر مكسيكية شهيرة وممتدة عبر دول أمريكا اللاتينية. (المترجم).

انتهت التمثيلية الرومانسية الساذجة والفريدة التي أديتها مع بابا لبضعة أشهر بعد انتقالي إلى المدينة، وليتها انتهت قبل ذلك، فبحلول ذلك الوقت كان الارتباك وتأنيب الضمير قد مدَّا بداخلي جذورًا يستحيل اقتلاعها.

في أثناء وجودي مع ماما أغاظني كل ما فيها؛ إنها خجولة وجبانة، وصرت أشعر بالخزي من الحنان الذي أثارته بداخلي إيماءاتها الرقيقة في يوم من الأيام، وددتُ اقتلاع الأُشْنَة التي طالما التصقت بجلدها: أخي خوليان. كلاهما كينونة عديمة الشكل والأهمية، وجودٌ غير مريح يصبو إلى الاختفاء.

لطالما اعترتني في تلك اللحظات رغبة في الخروج هربًا، لكن لا بد من انتظار يوم السبت، يوم رؤية بابا. لم أرده أن يفسر سخطي كعلامة على الضعف.

اتسمت الأمور بالبساطة إلى جانبه، ديناميكية تعتمد على التحفيز والمكافأة. لو أتيت له بالدرجات النهائية فسأربح ابتسامة، ولو أخفقت فسأنال التوبيخ، لأنه ذنبي.

يغدو العالم ملتبسًا حينما يكون الحافز غير واضح أو لا يتوافق الرد مع النتائج المقدمة.

الالتباس: الدُّوار، التشوش، الحس المرافِق[1]، الحلم. في بيتٍ مرتب، يكتشف شخص ما فجأةً غرفة سرية كل شيء فيها مقلوب رأسًا على عقب.

اعتاد بابا أن يسب الجدة كلما ذكرتُ شيئًا عنها، وشعرت بأن تلك الكلمات موجهة إليَّ. أمكنني التنصل من ماما وخوليان، لكن انتقاده للجدة ضايقني جدًّا، فقد وصفها بالجاهلة وسخر من مظهرها وطريقتها في الكلام.

«وما أدرى تلك العجوز الحمقاء؟».

عندئذ يصير العالم معكوسًا، وتنتابني الرغبة في الهرب حتى أصل إلى ماما، وأعانق خوليان، وأتوسل إليهما ليقبلاني في فريقهما، فأنا مستعدة لدفع رسوم الانضمام.

كان بابا يعرف أن كلماته أمواس، يغرزها واحدًا تلو الآخر حتى صار الألم لا يُطاق. تحجرت في صمت، وتحملت برباطة جأش حتى يَفرغ من تقيؤ الاحتقار الذي يضمره نحو كل ما أحبه، آذاني بابا من دون أن يلمسني، قيَّدني بسلسلة خفية يستطيع أن يسحبها متى أراد.

---

(1) بالإنجليزية «Synesthesia»، هي حالة عصبية تسبب اشتراك المعلومات وتراكبها من حواس مختلفة، وتصيب واحدًا من كل 25 شخصًا على الكوكب. (المترجم).

بعض الطرق التي آذاني بها بابا:

التحدث عن إخفاقاتي: «حتى كأنكِ تحبين الخسارة».

صفات وتشبيهات للتحدث عن وزني الزائد: «بدينة، خنزيرة، شحيمة، مشوهة، ألا ترغبين في الارتباط بأحدهم عندما تكبرين؟».

صفات متنوعة: «مبالِغة، هستيرية، صيَّاحة، أنتِ مثل أمك».

إيماءات: رفع الحاجبين، زم الشفتين كمنقار تعبيرًا عن الامتعاض.

شتائم.

تهديدات.

احتقار.

قسوة.

تعليقات عن ماما: «حماقتها بقدر قبحها».

تعليقات عن الجدة: «تلك العجوز الحيزبون اللعينة».

تعليقات عن خوليان: «أخوكِ المخنث».

عنف جسدي.

تحطيم أغراض جامدة: أكواب، أطباق، صور، كتب، التلفاز، باب غرفتي.

تحطيم أخي خوليان كذلك.

عندما كان يختفي لفترات طويلة.

عندما كان يعود إلى حياتنا.

عندما مات.

واجهت بابا قبل أن أرحل، أخبرته بأنني قدمت طلبًا للالتحاق بجامعة في مدينة أخرى وأنهم قبلوني. ظننت أنه سيشعر بالفخر، لكن الحقيقة أنه لم يمكن التكهن برد فعله قط؛ كانت نوبات غضبه غير متوقعة إلى درجة أنني في بعض المرات حنيت رأسي لحماية وجهي من لطمة وشيكة، في حين أن نيته هي إعطائي تربيتة استحسان.

«ومتى كنتِ ستفكرين في إخباري بأنك تريدين الانتقال إلى مكان آخر؟». بدت نبرة صوته العميقة كزمجرة عدوانية.

«أنا أخبرك الآن». أنا، الفريسة.

«ومتى طلبتِ مني الإذن؟».

استراتيجيتي: أن أكون خوليان لبضع دقائق، أرتدي جسده، أحتمي خلف الأسوار ذاتها والرغبة القهرية في التزام الصمت. ليس ضروريًّا أن يكون المرء تائهًا داخل المتاهة، فأحيانًا يكون بمأمن كذلك.

ما من صلة جمعت بين حجج بابا غير المنطقية، إذ يقفز من موضوع الجامعة إلى جهل الجدة، إلى سوء استخدام ماما لمالها.

«ذلك الببغاء اللعين الذي لديهم، تلك الحيوانات تجلب الأمراض».

كنت جبانة وما زلت؛ لا أشارك إلا في المعارك الصغيرة التافهة والعقيمة التي أعرف أن بإمكاني الفوز بها: شجارات مع مجهولين على الإنترنت، صراخ على موظف بنكي يريد إلغاء شيك لي، سخرية

ممن يركنون سياراتهم في أماكن ممنوعة ويعيقون عبور المشاة، من راكبي الدراجات الذين يسيرون على الرصيف.

أما مع أبي، كلا. بالنسبة إليه: النظرة المنخفضة والخاضعة، صمت المكسورين.

ظل صوت بابا يدوي، من الخارج، في جدران متاهتي.

كلب أسود صدره أبيض ونظرته حزينة، يستريح في الصورة جالسًا على قائمتيه الخلفيتين وإحدى أرجله مجروحة. لم يقرر هل سيستلقي أم سيهرب، كحالي أنا.

لا شك أن هذه إحدى أفضل الصور التي التقطها خوليان.

هو آخر كلب أتى إلى المنزل قبل انتقالي إلى مدينة أخرى، وأسمته الجدة بِبو. دخلت وخرجت كلاب من المنزل خلال تلك الأيام، جمعتها ماما من الشارع وعالجتها في العيادة، ثم أحضرتها إلينا لنعتني بها حتى تتعافى.

كانت ماما ملاذًا من أجل تعساء الحظ، لا من أجلي أنا.

الحظ: النصيب، وضعية لا يختارها المرء، كأن تضربه صاعقة أو يفوز باليانصيب.

الحظ السعيد: ألَّا يضطر أحد إلى الاعتناء بك.

الحظ التعيس: ألَّا يعتني بك أحد.

في تلك الأثناء، ظل موستاتشو الثاني يأتي ويذهب بين الشقق المختلفة، ولم يعرف أحد هل هو قطنا فعلًا أم مجرد زائر، الغريب أنه لم يحاول قط اصطياد الببغاء، إلا أن كليهما تمتع بالذكاء في هذا الصدد. الحقيقة أن الفريق المكوَّن من ماما والجدة وخوليان تمكن

من استعادة توازنه الهش، لكنني ظللت أشعر بعدم وجود متسع لي، لهذا رحلت.

لطالما قالت الجدة إن ثمة مصيرين للحيوانات المعنَّفة. يستحيل بعضها عدوانيًّا ولا بد من توخي الحذر معها لأن بمقدورها اقتلاع يدك، وقد تتسبب أي ضجة غريبة في تحفيزها على الهجوم، ويستحيل بعضها الآخر خاضعًا وخوَّافًا؛ إذ يدفعها التعنيف إلى مكان لا تستطيع العودة منه، وتبقى فيه إلى الأبد. يمبوس مظلم عيناه منطفئتان، حيث لا يمكن لأحد أن يتصالح مع النوم.

كحال أخي.

تعافى بِبو بمرور الأيام، التأم جرحه وخلَّف مكانه ندبة جعلته يبدو أكبر سنًّا، أخذ يهز ذيله بامتنان وهو يأكل، لكنه لم يصبح قَط كلب عائلة، ورضي بعالمه ذي النزهات القصيرة والماء النظيف وفراش لقضاء الليل في سهر أبدي، اليمبوس الذي لم يبرحه قط لأنه لا مهرب للمرء من شياطينه.

2

نحن معشر المكسورين نتعرف على بعضنا بسهولة، نتجاذب ونتنافر بالصورة ذاتها، ونشكل رابطة حزينة ومهزومة. نحن البلدة التي بُنيت إلى جوار البركان، والمدينة التي انتصبت فوق أرض مهزوزة، كل أيامنا، أيام الزلزال الكبير. ستنهار قريتنا، وبين لحظة والأخرى ستختفي عن وجه البسيطة.

أول ما أعجبني في المدينة حين وصلت إليها هو الضوضاء، الدوي المستمر للأشخاص والسيارات، استحالة الصمت، صوتي الضائع بين آلاف الأصوات الأخرى؛ أن يصير المرء مجهولًا.

الصمت: الخارج. الغياب، الفراغ. انعدام وجود ذلك الماضي.

استأجرتُ غرفة طلاب في جادة شديدة الازدحام، حيث الأنوار مضاءة طيلة الليل، ومحلات التاكو والحانات مفتوحة. حركة الأطباق والزجاجات والكؤوس، الصخب، أغنيات موسيقى «المارياتشي»[1] حتى ساعات متأخرة من الفجر، «أعرف جيدًا أنني بالخارج»، واشتريت لنفسي راديو أيضًا.

عاش في ذلك البيت شخصان آخران، لكنني لم أستطع تكوين علاقة مع أي منهما. طالب صيني أو ياباني اعتاد أن يُعد أرزًا في المايكرويف ثم يدعونا إلى الأكل، وأيضًا مالكة ذلك البيت الكبير والقديم ذي الجدران الخشنة والمكسَّرة. لطالما دعتني إلى تناول الطعام معها، وأعدت يخنات ذكرتني بيخنات الجدة. كنت أرفض الدعوة، كما أرفض أرز الصيني، ثم أنعزل في غرفتي لأفكر في سبب شعوري بكل هذا الخوف من الناس.

(1) نوع من الموسيقى المكسيكية أضافته منظمة اليونسكو عام 2011 إلى قائمة التراث والثقافة الإنسانية. (المترجم).

أمضيت حياتي كلها في انتظار هذا الأمر تحديدًا، العفوية المريحة للأشخاص العاديين، محادثاتهم العشوائية غير المؤذية، نظرات كأنها تحيات، أن يصرخ المرء في العالم: أنا موجود.

تأخرت قليلًا في إدراك أن مشكلتي ليست الصمت، بل الوحدة، الشعور بعدم الانتماء إلى أي جانب، خسارة قبيلتي، نسيانها، أم أنني لم أحظ بها قط؟

أنا وأخي: القارة التي انقسمت. جزيرتان مهجورتان.

لم يكن صمت أخي شيئًا يحوم حوله محاصرًا إياه، بل صار طبيعته. لعبت الوحدة الدور ذاته بالنسبة إليَّ؛ إذ لم تكن مجرد وضع غير مرغوب فيه، بل آخر نواة لوجودي، منتصف أسواري، درعي ودماري الذاتي.

الصمت: الداخل، الغياب، الفراغ. حاضرٌ لا يمكن الهروب منه.

في لعبة المرايا التي أحيانًا تمثل العالم، لطالما تجنبت أدق انعكاساتي؛ إذ إن أبغض الناس إليَّ أكثرهم شبهًا بي. استغرقني الأمر عدة سنوات لإدراك هذا الأمر، وكان اكتشافه نوعًا من الإلهام.

لا تزال مسألة تقربي من آنا تحيرني حتى اليوم، إن كنا متشابهتين إلى هذه الدرجة؛ لون البشرة ذاته، والهوس ذاته بعضِّ الأظفار.

تعرفت إليها في المدرسة، ووقع عليَّ الاختيار لتشكيل فريق معها في إحدى ديناميكيات الاندماج. لاحظتُ إعجابي بملابسها وأسلوبها في الكلام، ودونتُ اسمها ولقبها في ورقة بنية عدم نسيانهما. بعد انتهاء الحصة جاءت لتطلب مني مرافقتها لزيارة صديق.

«لو ذهبت مع أحد يمكنني إنجاز الأمر بصورة أسرع».

لم يكن قد مر على انتقالي إلى المدينة سوى أشهر لم أستطع خلالها تكوين كثير من الصداقات، إلا أنني صمدت أمام عرضها.

«هيا، سأدعوكِ إلى شرب الجعة».

اضطرت إلى إقناعي لكي أفعل شيئًا أردتُ فعله منذ البداية، أحيانًا تفاجئني تصرفاتي.

تناولنا الجعة في حانة قريبة من المدرسة، حيث لم تستطع آنا أن تتخلص من صديقها وانتهى المطاف به في صحبتنا. اسمه ميمو، وقبل أن تقدمني إليه آنا حذرتني من أنه فتى ساحر ويسهل إضحاكه.

«لا تدعيه يستدرجك في الحديث وإلا فأنت ضائعة».

إنه السحر ذاته الذي يدفع الأشخاص للفرار. مضى الوقت معه سريعًا وهانت المسؤوليات، وكفت نظرتان إلى ابتسامته ذات الأسنان الدقيقة ليرغب المرء أن يبقى في الحانة إلى الأبد. كان ميمو جميلًا وخطرًا في الوقت نفسه، إنه مزيج عرفته جيدًا وأسرني في جميع الأحوال، إنه الحريق.

ما من طريقة أعرف بها إن كانت الأشياء التي أفعلها نتاج إرادتي العقلانية أم أنها مجرد آثار لسلوك تعلمته على مدار السنين، مجرد ردود أفعال، وكذلك ما من وسيلة أتوقف بها عن التفكير في الأمر بصورة مفرطة، بل أتأقلم فحسب. يستوجب التعقل أن يعود المرء إلى الصمت، وهي حركة مفاجئة تشبه الصوت أكثر.

رد الفعل: نتيجة خطية أو عكسية. إن قلت لي «اقفزي» فسأقفز. إن قلت لي «اقفزي» فسأكف عن فعلها إلى الأبد.

خلال الأشهر الأولى التي قضيتها خارج البيت، فقدت من وزني أكثر من عشرة كيلوجرامات. لم أعانِ زيادة مفرطة في الوزن كما أوهمني بابا في طفولتي، لكنني أخذت الحمية على محمل الجد فلم يهدأ لي بال حتى صغر مقاسي بصورة جذرية. ورغم أنني لم أتقبل نصائحه الغذائية قط، فقد عكفت على العمل بها حالما ابتعدت عنه.

ما زلت لا أعرف هل فقدت وزني لأنني حقًّا أردت فعلها، لكن على الأقل أخبرت نفسي بذلك. أمام بابا: الدرع. بعيدًا عن ناظره: الطاعة. ربحت مودته متأخرًا بعشر سنوات ومن دون علمه.

أشعر بالندم لأنني خنت ميمو مع نصف رجال المدينة؛ ظننت حينها أنه يستحق ذلك لأنه ساحر بصورة مبالغ فيها وسيؤذيني في نهاية المطاف. لم تكن علاقتنا لتصمد طويلًا، فهو يحب الحديث ولا بد أن تنفد المواضيع مني.

لم أكن بابا، مهما اجتهدت في تمثيل دوره، لم أملك ذلك الكتالوج اللانهائي من القصص، ولا هيبة المرء الذي يعرف أنه يملك العالم.

كان سينتهي بي الحال بتخييب أمل ميمو، وآنا، والجميع. لهذا اخترت إيذاءهم أولًا.

كعكة عيد ميلاد، يبدو وجه خوليان مظلمًا خلف وهج سبع عشرة شمعة. إنه يبتسم، على الأرجح مرغمًا بسبب من تحيطان به: ماما والجدة.

أتذكر أنني اتصلت بهاتف المنزل لتهنئته، وتفاجأت للغاية باكتشاف أنهم أعدُّوا حفلًا صغيرًا. أعتقد أنني أستطيع أن أَعدَّ على أصابعي تلك المرات التي حظينا فيها بكعكات في البيت، وفكرة أنهم أعدوا حفلًا في غيابي عززت إحساسي بالهجران.

ولكي أهدأ، أقنعت نفسي بأن المتغير الذي تسبب في تغيير الديناميكية التي بينهم ليس غيابي بل الجدة، لأنها اعتادت أن تتذكر تلك التواريخ وتتولى مهمة إشعارنا بأننا محبوبون: حياكة كنزة أو طبخ إحدى اليخنات التي نحبها.

يطبخ: يُعد، يلطِّف، يحتضن، يهدئ. أظهرت لنا الجدة حبها من خلال الطعام، وأظهرتُ أنا كراهيتي لنفسي من خلال الطعام.

لم تهاتفني ماما سوى مرات قليلة جدًّا طيلة العامين اللذين عشتهما في المدينة بمفردي، لكنها اعتادت الاتصال كل أحد بعدما بدأت أعيش مع خوليان. لطالما اتصلت في تمام الثامنة صباحًا، لكيلا توقظ ابنها الذي لا يتكلم ولا ينام.

المهاتفة: البحث، الوصول، الترابط. ذكر الاسم. خوليان.

في بعض المرات اتصلتُ بهاتف المنزل وظللت أتحدث مع الجدة، وانتظرت أن تلقي ماما التحية أو تطلب السماعة للتحدث معي، إلا أن هذا لم يحدث. بالنسبة إليَّ، ظلت ماما هي الصمت بعينه.

مواضيع المحادثات التي تفضلها الجدة خلال مكالماتي الهاتفية المتقطعة:

حالة الطقس، التي تسميها «الجو».

الجريمة.

ماما.

خوليان.

أنا.

التلفاز.

الجد.

محطة الحافلات.

نحن معشر المكسورين نعيش أنصافًا، أو هكذا نظن. ربما لهذا السبب نتحرق شوقًا إلى القطعة التي تكملنا. لطالما أردت الانتماء إلى فريق حتى لو كان ثنائيًّا فحسب. وجدت في ميمو ذلك الفريق، على الأقل لبعض الوقت؛ إذ أشعرني بأنني جزء من شيء ما، فتشاركنا الطعام والفراش وكل شيء بالتساوي ولهدف مشترك. كذلك شكَّلت آنا جزءًا من الفريق ليتكوَّن المثلث مرة أخرى، الشكل الهندسي المثالي، ثلاث زوايا متصلة ببعضها في توازن تام.

الفريق: السرب، الشراكة. الفوز أو الخسارة، لكن في وجودنا معًا.

كنا وحدنا نحن الاثنين، أشبه بطفلين، ومن السهل علينا تكوين علاقة بأي وسيلة كانت، حتى صارت تلك المحاولة لاقتسام الحياة مع شريك بلا مغزى كبير، هي الشيء الوحيد الذي تمكنت أنا وميمو من دمجه مع هذه القطع المعيوبة.

«أنتِ جميلة جدًّا».

«أنا مغرمة بك».

عشنا معًا بعد شهرين من تعارفنا. منضدة، تلفاز، مرتبة، بيت بلا نوافذ.

البيت: المشروع، الوجهة، الخريطة. أن تكون ملاذ أحدهم وساكنَه في آن واحد.

سرعان ما اختفى ميمو السعيد والثرثار الذي تعرفت إليه بفضل آنا، وحلَّ محله شخص آخر أسميته ميمو الثاني، لكي أميزه عن ميمو الثالث الذي تأخر مجيؤه عدة سنوات وبالفعل كان شخصًا مختلفًا.

شخصان وثلاثة ميموهات.

لم يرق ميمو الثاني أن أكون سعيدة واتفق كلانا في هذا الأمر، لأنني أيضًا في تلك الفترة لم أرد أن أصبح كذلك. ارتأيت أن السعادة أقرب إلى رغبة دائمة عن الموت. «أنا بخير»، فكرت في ذلك وأنا في الطريق إلى المدرسة، في الحمام، في المتجر، في أثناء تجفيف المياه

التي تتسرب من تحت الباب في موسم الأمطار. «هذه هي حياتي ولست أتخيلها بطريقة أخرى».

لطالما باغتتني مثل هذه الخواطر حينما يتسلل الصمت عبر أحد شقوق جدران السور، يرافقه الخوف كتصدعات في أسس هذا البيت حديث البناء.

اعتدت التحدث كثيرًا رغم عدم امتلاكي للقصص، من يدري ماذا كنت سأفعل لو امتلكتها. ظن بعض الناس أنني سعيدة، بينما لم يكن الأمر سوى قلق مفرط. ضحكت ملء فمي بانتشاء بعد زجاجتين من الجعة، وطالما بكيت في النهاية.

أحس ميمو بالاستعلاء عليَّ لأنه لا يشرب، إلا أن الأمر بدا لي مملًّا. أراد أن يبدو بمظهر المثقف، لكن احتوت رسائله على أخطاء إملائية، وبدأ يُشعرني بالخزي من الفريق الذي اخترته.

الأخطاء: العيوب، النواقص. نقص الاحترام. أنت تنقصني.

خلال الوقت الذي قضيناه معًا، عزمت على وضع روتين يجعل مني شخصًا جديدًا، شخصًا لا يعيش وحيدًا، شخصًا يواجه.

لكن امتلأت الحياة مع ميمو بالشجارات.

أمور تشاجرت بسببها مع ميمو:

قذارة المطبخ.

لون صلصة التاكو من مطعم الوجبات السريعة.

من حان دوره في الدفع لسيارة الأجرة.

كيفية الاحتفال بعيد ميلاد.

طريقتي في الشرب.

صوت ابتلاعه.

شخيره.

آنا.

مكالمات هاتفية باكرة جدًّا.

انقطاع الكهرباء بسبب التأخر في الدفع.

غياب الجنس.

عاداتي الغذائية.

إمكانية تبني قطة.

اختفاء كنزته.

غِيرته.

خياناتي المتكررة.

إنجاب أبناء.

محاكاة اصطناعية (وفي الوقت نفسه مبالغ فيها) لمكالمة مع بابا:

- مرحبًا يا بابا.
- يا للمعجزة.
- كيف حالك؟
- بخير، وأنتِ؟ ماذا تريدين؟
- لا شيء، ألقي التحية.
- أتحتاجين إلى المال؟
- لا، ألقي التحية فحسب.
- أوكاي[1].

(صمت)

- كيف الحال؟
- بخير.

(صمت)

(صمت)

- وأنتِ يا ابنتي؟

(1) وردت في النص الأصلي باللغة الإنجليزية «Ok»، وفضلت الإبقاء عليها بهذا الشكل حفاظًا على روح النص. (المترجم).

- بخير.

(صمت)

(صمت)

- اسمعي، أنا خارج. نتحدث لاحقًا؟

- حسنًا، وداعًا يا بابا.

ثمة أشياء أراها بوضوح ومع ذلك أصر على عدم تغييرها. أعرف أنني كبرت منقسمة بين مجموعتين، وأن الطريقة التي نشأت بها في العالم هي مفاوضات مستمرة بين قطبين. تعايش، جمع وطرح، اليوم أختار أن أكون هنا، وغدًا بالتأكيد سأكون هناك.

يختار: يقرر، ينتقي، يتخلى. اخترت أين أعيش، ولم أختر أين أولد.

اعتدت في طفولتي حين أغضب من بابا أن أهرع إلى حضن ماما، بصورة مجازية، لأنني في الواقع لم أفعلها قط، لكن لم تنقصني الرغبة في ذلك. وعلى النقيض: حين تحبطني سلبية ماما، أجد العزاء في وجود بابا.

لست فخورة بكوني هكذا، لكنَّ ثمة شيئًا مطمئنًا في حقيقة أنني -على الأقل- أعرف نفسي، نقاط قوة وضعف محفوظة في نفس الجعبة.

أعرف أنني خنت ميمو كثيرًا، خصوصًا عندما زاد من إيذائي. إنها آلية دفاعي الأقدم: خيانة من يجرحني.

يخون: يكذب، يوهم، حيلة سحرية، شعوذة. صورتي المشوهة في مرآة مدينة الملاهي.

ازدادت حدة الشجارات مع ميمو الثاني بمرور الوقت. في المرات الأولى حاولنا مناقشة الأمور ببساطة، كما يفعل الأشخاص المتحضرون في اعتقادي. «يزعجني هذا وذاك. سامحيني، سأحاول ألّا أقلل من احترامك أمام أصدقائك، أعدك بأن أغسل أسناني قبل تقبيلك في الصباح».

تخلينا عن المحادثات شيئًا فشيئًا وانتقلنا إلى الصراخ: «أتظنين أنني أبله؟ يبدو الآن أنكِ فعلًا تحبين هذه الحانة».

بعد مرحلة قصيرة من صفق الأبواب وتبادل الاتهامات، وهي مرحلة لم تستغرق شيئًا، انتقلنا على الفور إلى تبادل الضربات، دفعني عدة مرات نحو حائط الرواق وهدد بإيذائي، وقطعت تنفسه ذات مرة بلكمة في فم معدته. آنا هي أول وآخر شخص ألحَّ عليَّ أن أتركه، لطالما قالت إنه قميء.

انفصلنا أنا وميمو وسط الشتائم والضربات حتى لفت صراخي أنظار الجيران. صرخ في وجهي: «لنرَ إن كنت ستكفين عن تقيؤ كل ما تأكلين، أيتها اللعينة غير الطبيعية».

الطبيعي: الشائع، العادي، المتوسط.

الحالة الطبيعية هي تلك الذكرى المكونة من أجزاء لا يمكن استعادتها.

كلما سألني أحد عن بابا ادعيت أنه ميت، وإذا سألوا عن كيفية موته أجبت: «لا أريد الحديث عن هذا الأمر». بعد دقائق أنطلق في سرد سلسلة من الذكريات الزائفة، والقصص التي أسطرتها بنفسي من كثرة تكرارها.

لأصدقائي: «انتحر بابا في العام الماضي».

للفتية الذين يتقربون مني في الحفلات: «كان سكيرًا ودهسته سيارة وهو خارج من إحدى الحانات».

في ديناميكيات الاندماج بالمدرسة: «قتلته تجارة المخدرات».

ما الذكريات سوى مجموعة من الاحتماليات؟ إنها أقرب شيء إلى الحقيقة، وفي الوقت ذاته لا تمت إليها بصلة. الأحداث التي كان بإمكانها أن تقع، تلك التي نعود إليها مرارًا وتكرارًا، لأننا نحتفظ بها في جيوبنا.

ذات مساء دعوت بعض الصديقات لتناول الجعة في المنزل وأبكيتهن جميعًا بذكريات مختلَقة. وحدها آنا كانت تعرف القصة الحقيقية.

عرفتُ أن أخي، خلال تلك الفترة التي عشنا فيها معًا، يستمع إلى قصصي من وراء الباب. ظل منعزلًا في غرفته وهو يسمعني أنسج سيناريوهات لم تحدث، حيث يمكن احتمال المأساة لأنها لا تخصنا. كان موت أبي الزائف بمنزلة استراحة، الخاتمة التي استحققناها ولم نحظ بها قط. لكنه ظل مقتنعًا بأن بابا لم يمت بتلك الطريقة، ربما لم يمت على الإطلاق، ربما لا يزال حيًّا الآن، حتى بعد موته.

طرق كان ينبغي لبابا أن يموت بها:

نادمًا.

قررت عدم الذهاب إلى مراسم دفنه لأنني دفنته منذ زمن بعيد، إنها خيانة أخرى لفريقي. لم أبكِ عليه حتى، فقد عانيت بسببه بما فيه الكفاية.

الدفن: التغطية، الإخفاء. كبح ذكرى أليمة حتى تتحول من حدث إلى احتمال.

سأكون كاذبة لو قلت إنني لم أتخيل موت بابا كثيرًا، الدقائق التي تسبق أنفاسه الأخيرة، تلك التي يخبرني فيها بأنه آسف جدًّا على إيذائنا: «لم أرغب في كسر خوليان، لقد أحببته»، ويتوسل لكي ندعه يحاول من جديد ليكون رجلًا أكثر صبرًا، وأبًا متفانيًا وحنونًا، وزوجًا مثاليًّا. أن يتعامل مع مشكلات العنف التي يعاني منها ويتلقى علاجًا نفسيًّا.

تخيلت أيضًا إمكانية البصق على قبره ووجهه المحتضر، وأن أسلبه آخر نفَس من الأكسجين كما سلبنا كل شيء.

حتى هذا لم يستطع منحي إياه.

مات الطاغية الأعتى بأتفه طريقة ممكنة: احتشاءٌ قلبي مفاجئ لقي به حتفه قبل أن يصل إلى المستشفى.

الاحتشاء: صاعقة، مطواة، قنبلة. انتهى الأمر وهذا كل شيء.

كيف سأتصالح الآن مع ذكرى؟ من الذي ألومه على حالة القلق الدائم التي أعيش فيها؟ من الذي أحمِّله ذنب تقلباتي المزاجية، والرغبة القهرية في طقطقة أصابعي وعض أظفاري، وقضاء أيام كاملة بلا أكل ثم الأكل بشراهة وتقيؤ الطعام، وغيرتي المرضية وقدرتي على الخيانة، وهذا الإحساس بأنني لست شيئًا يذكر في العالم، بأنني وحيدة، بأنني ميتة؟

اتصلت بالمنزل لأنني أردت الاطمئنان على ماما، لكنني لم أستطع إيجادها حتى حلول الليل، فقد حضرت الجنازة في الصباح ثم أمضت المساء بأكمله تتجول في المدينة، منهكةً كأنها شبح.

لم يعد هذا الوطن يسع المزيد من الموتى. أصبح عددنا، نحن معشر الناجين، قليلًا للغاية وصرنا وحيدين. الآن نحن وحيدون بالفعل، ماما وخوليان وأنا، ثلاثة، مثلث غير متناسب، كل ضلع فيه أكثر تزعزعًا من الذي يسبقه.

دعوت خوليان للمجيء إلى المدينة، لعل أخي، تلك الفزاعة الشبحية النحيلة، يجد الطمأنينة في أن يصير مجهولًا، مثلما وجدتُها. كان بيتي صغيرًا، لكن ليس أصغر بكثير من بيت مبنى العائلات السكني.

«اطلب من ماما أن تدفع لك أجرة الحافلة، وسوف تعود عند انتهاء العطلة».

على الجانب الآخر من الخط لم يجب خوليان بشيء، فتخيلته وهو يومئ برأسه لعدم وجود أسباب للرفض.

يدعو: يفتح بابًا كان مغلقًا. يدفع الحساب، يرافق. أن يشتاق المرء إلى أخيه ويطلب منه أن يكون معه من جديد. يؤكد الحضور أو يعتذر عن الغياب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قضيت شهورًا قبلها من دون أن أرى خوليان. ورغم انتظاري لمجيئه، فقد أدهشتني رؤيته في شوارع الحي الذي أسكن فيه.

لطالما سار خوليان بتمهل وحذر، بينما ينظر إلى الأرض كمريض قام لتوه من عملية جراحية ويحرص على عدم إيذاء الجرح. بدا وسط مرتادي المترو كأحد أبناء العاصمة؛ إذ تغير مظهره بعدما تمتع بمزيد من الحرية والخفة، وافترق عن ماما وعن الحياة في مبنى العائلات السكني.

اصطحبته إلى البيت وقدمته إلى آنا، بعدما اشترينا «الهوت دوج» من الشارع حيث يهطل المطر. حاولت آنا التحدث معه بمزيج من الفكاهة والفظاظة كما تفعل دائمًا مع أصدقائها، إلا أن خوليان رد على كل شيء بكلمات أحادية المقطع، وفي المرة الوحيدة التي طرحنا فيها عليه سؤالًا مباشرًا تهرب من الإجابة.

قلت له: «أحقًّا ستنهي دراستك الإعدادية؟»، مستغلةً سلطتي كأخته الكبرى.

«لا أعرف».

خرج في منتصف الليل ليتمشى في الحي رغم المطر. كان لا يزال نحيلًا ومنغمسًا في ذاته كالمعتاد، لكنني لسبب ما لم أخشَ على سلامته، سيكون خوليان بخير.

في أثناء غسل الأواني، بدأت تحاصرني الأفكار التي طالما فضَّلتُ الهروب منها: صمت خوليان، ماما وجدتي، المدينة، حياتي، بيتي الجديد المبني من مخاوف الطفولة، ميمو، كل هذا القدر من السعادة الكامنة في يقيني بعدم وجود خيار آخر.

شغلت الراديو لإلهاء نفسي، ثم أطفأته على الفور، تحدثت آنا معي من الغرفة الواقعة على بُعد أمتار قليلة من المطبخ.

«اسمعي، أخوكِ يبدو غريبًا بعض الشيء».

لاح في ذهني جواز السفر الخيالي الذي يعتمدني كمواطنة في أحد البلدان: عائلتي، ماما وخوليان وأنا والجدة، وأحيانًا بابا، المنفي والغازي. وطن مكون من أربعة أشخاص وبلا أرض للمزيد. حقَّ لي أن أدعو خوليان بـ «الغريب»، بل وأقول له «أيها المتخلف الغبي، لماذا لا تجيب يا أحمق؟»، لكن ليس لآنا، ليس للغرباء قط.

«لا تتحدثي عن أخي هكذا».

نظرت إليَّ في حيرة:

«أنتِ دائمًا تتحدثين عنه هكذا».

ثم وقع الانهيار؛ إذ وجدت نفسي -مرة أخرى- منقسمة بين فريقين متناحرين. في ذلك الوقت كنت أحب آنا كفرد من عائلتي، كأنها أختي الثانية نوعا ما. آنا، ملاذي في بعض الأحيان، خط المماس في شكلي الهندسي غير المنتظم.

الأخ: الرفيق، المتواطئ، الشاهد. العينان اللتان شهدتا الحرب نفسها.

هي لم تشهد الحرب.

قالت لي على الفور: «سامحيني»، لكنني التزمت الصمت.

ظن أحدهم أنها فكرة جيدة، ربما أنا مع بعض زجاجات الجعة.

«اسمع يا خوليان، لماذا لا تبقى هنا في المدينة؟».

هز كتفيه.

أصررتُ: «يمكننا العيش معًا».

(في الواقع، نادرًا ما هز أخي كتفيه، لكنها الطريقة التي تمنح بها ذاكرتي معنى لتلك الفراغات؛ إذ يبدو صمت خوليان في ذكرياتي دائمًا كإيماءة لا مبالاة، مثل رفع وإنزال الكتفين في تحفظ: «كما تشائين». هذا ما يحدث مع الصمت، أننا نملؤه بأفضل طريقة ممكنة. لطالما تكوَّن أخي من نصف ذاته الحقيقية ونصف مخيلتي. قصتي الخيالية الأولى: صوت أخي).

3

صورة ذاتية لخوليان لا توجد غيرها. بدأ ظهور الكاميرات الرقمية في تلك الفترة، لكنه ظل يستخدم كاميرا الفيلم القديمة خاصته، كاميرا بابا. أنفق كل النقود التي أرسلتها إليه ماما على طباعة الصور. لا أعرف ماذا فعل بها بعد ذلك، فلم يبقَ منها إلا القليل.

التقط هذه الصورة في مرآة حمام. إن لم تخني الذاكرة، فإنه حمام إحدى الشقق التي زرناها حينما قررنا الانتقال للعيش معًا. يتعارض لون السيراميك الأزرق والأبيض مع لون وجهه الأسمر الفاتح، وثمة إحساس بأجواء الشاطئ رغم وجودنا في قلب المدينة، وشمس دافئة وذهبية تتسلل عبر النافذة بصورة تستحضر ألوان البحر. لا أعرف كيف أشرح الأمر، لكن خوليان فعل أمرًا حسنًا بالتقاطه تلك الصورة.

الشاطئ: الجنة، الواحة، الاستراحة، المحيط، إنشيلادا جوز الهند[1]، كرش بابا، ساقا ماما، نفض الرمال التي التصقت بالجسد.

---

(1) وجبة خفيفة تصنع من جوز الهند وخليط من الفلفل الحار وحمض الستريك والملح والليمون المجفف. (المترجم).

مالك الشقة هو السيد سالاثار، لكن المسؤولة عن عرضها هي الآنسة إتثل التي عاشت طيلة حياتها في الشقة 301.

وصلت أنا وخوليان باكرًا عن الموعد المتفق عليه، لم يكن لدينا ما نفعله في تلك الأيام سوى ذهابي إلى المدرسة صباحًا وانتهى الأمر، أما خوليان فقد انتقل إلى السنة الأخيرة من المرحلة الإعدادية لكنه لم يذهب ولو مرة واحدة.

كانت ماما ستدفع لنا الإيجار بمرتبها من عملها في العيادة البيطرية، بعدما حصلت على ترقية وأصبحت رئيسة وردية. بين مرتبها ومعاش الجدة المتواضع، اتسمت الحياة في مبنى العائلات السكني بالضيق والقلق، وظلت نفقة بابا محل نزاع.

المال: العملة، الدخل، الوفرة، العوز. إن كان المال هو الشيء الوحيد الذي يمكنك منحي إياه، فسوف أعتاد أن أطلبه منك لكي أقيس مدى محبتك.

على الرغم من صعوبات الحياة، أصرت ماما على دفع إيجارنا. أعتقد أن هذا التصرف كان مهمًا بالنسبة إليها ولم أعرف قط لماذا. لم تُرِدْ منا أن نعمل بعد، وفضلت أن ندرس. اعتدت العيش في مساحات ضيقة: غرفة الطلاب والقبو الذي تشاركته مع ميمو؛ فبدت لي أي شقة بديلًا ممتازًا. حصلت على منحة دراسية، وساهم خوليان بعدم إنفاق المال في أي شيء على الإطلاق.

كانت الآنسة إتثل في قرابة السبعين من عمرها، وبدا من تعليقاتها أنها قضت نصف تلك المدة وهي تصلي، كما تزين عنقها المتجعد بصليب خشبي.

«هل أنتما متزوجان بموجب القانونين[1] يا صغيران؟ ما زلتما شابين».

رمقها خوليان بابتسامة ساخرة لم تظهر على وجهه إلا نادرًا.

أوضحتُ لها: «نحن أخوان»، لأنني عرفت أنه لن يفعل ذلك.

اعتذرت المرأة عن سوء الفهم ثم تابعت جولتها عبر الغرف، وتجنبت دخول إحداها لاعتقادها الدائم أنها مسكونة.

سألتنا شبه مازحة: «أنتما لا تخافان الأشباح، أليس كذلك؟».

غاب أخي عن الأنظار وذهب للجلوس على المقعد الوحيد الموجود في المطبخ، أخذ يلمس جبهته كأنما يحاول اعتصار بثرة، واضررت إلى مناداته ثلاث مرات كي يعيرني انتباهه. لاح الترقب في عينيه كأنه يرغب في معرفة الخطأ الذي يفعله هذه المرة.

«تعالَ لترى الغرفة، ستحصل على واحدة مسكونة».

نهض عن المقعد بجسده الأشبه بكيس من العظام وتبعني. مر على أركان الغرفة الأربعة وهو يجر حذاءه على الألواح الخشبية التي طقطقت بهدوء أسفل قدميه. نظر من النافذة المطلة على الشارع ولمس الزجاج بأصابعه الطويلة، وحين رفعها لم يترك بصمة واحدة.

انسلَّ خوليان إلى خارج الغرفة عبر إطار بابها الضيق، بعد مروره بجانب الآنسة إتثل التي اتكأت عليه ولم ترفع نظرها عن هاتفها.

أنا لا أخاف الأشباح لأنني قضيت حياتي بالكامل أتحدث معها.

---

(1) القانونين: المقصود هنا هو الزواج مدنيًا وكنسيًا في الوقت نفسه. (المترجم).

من بين التناقضات العديدة الكامنة في مرور أخي عبر العالم، فإن أقساها هو عدم التوافق بين توقه إلى الاختفاء وبين حضوره اللافت.

في أغلب الأحيان أراد خوليان أن يختفي؛ إذ ورث هذا الأمر عن ماما. رغب في إحداث أقل جلبة ممكنة، التلاشي في الهواء، الطفو فوق المدينة من دون أن يلاحظه أحد، النظر، التصوير.

على الرغم من ذلك، لفت وجوده الصامت والشبحي الكثير من الانتباه، ففي عالم يمتلئ بأشخاص يصرخون طلبًا للاهتمام، لم يَسَع الناس إلا أن يلاحظوا ذلك الفتى الطويل والنحيل ذا النظرة المتحاشية، الذي يعي عدم أهميته جيدًا، ولا يبذل أدنى جهد ليلفت الأنظار. طفل عجوز بمظهر مذعور، عائد لتوه من الحرب. طغى ثقله على الغرفة، فانغلقت النوافذ، وانطفأت كل الأنوار.

بدا كأنه يحتاج إلى أكسجين أكثر من بقية الناس، كأنه يسرق الهواء من الجميع حينما يتنفس.

بنى أخي متاهته من جدران زجاجية.

انتقلت أنا وخوليان إلى البيت الجديد في ساعة باكرة من يوم أحد، وفي تلك الفترة عاد ميمو ليصبح ميمو الأول وحاولنا أن نكون صديقين. استغرق الأمر أسبوعين ثم لم نعد لرؤية بعضنا مجددًا. أحبَّ أحدنا الآخر بقدر ما كرهه، ربما لهذا السبب لم نتمكن من البقاء معًا بعد انفصالنا.

الانفصال: الانكسار، الانتقال، الانقسام الخلوي. كيان واحد يتحول إلى اثنين مختلفين. إقرار نظام جديد.

أكثر ما أفتقده من ذلك الميمو هو والده، فقد ساعدني على نقل كل شيء من بلدة «تلابان». كان حاذقًا ودائم الابتسام، يتحكم بصورة مثالية في تلك الكومة المتهالكة التي تفوح منها رائحة البنزين بعد السير مسافة مربعين سكنيين.

لأننا نشأنا ونحن نتوقع الكارثة الوشيكة، تعلَّمنا كيف نميز الأشجار قوية الجذور، فتشبثنا بها كأننا سنتمكن من بناء ملاذنا الجديد على فروعها.

لم يتوخَ ميمو الحذر في حمل الصناديق وكسر لي بعض الأكواب، كما مزق إحدى لوحاتي المفضلة، تلك التي تحوي أسدًا يمتطيه طفلان.

على النقيض منه، بدا والده كأنما يخطو فوق السحاب، إذ اتسم بالرصانة والرقة في كل شيء إلى درجة تمكِّنه من التفرغ لتربية الأشجار بطريقة «البونساي» اليابانية. كان ليصبح جَدًّا مثاليًّا لأبنائي.

والد ميمو: شجرة مثمرة. ميمو: ثمرة فاسدة.

انتقل أخي إلى البيت الجديد حالما أنهينا تفريغ الأمتعة، فجاء يحمل حقيبة على ظهره وفي يده أحد أكياس السوبر ماركت.

«وأغراضك يا خوليان؟».

احتوت نظرته على كل بديهية العالم: الأشباح لا يحتاجون إلى شيء تقريبًا. أخرج من الكيس شبشبًا وفرشاة أسنان وألقاهما في الحمام الذي مُسحت أرضيته للتو، ثم أغلق على نفسه الغرفة بالمزلاج. الباب حاجز، والمزلاج حاجز آخر. الصمت هو آخر الخطوط الحدودية، وأخي هو المدينة المحاطة بالأسوار.

ترتدي ماما فستانًا أبيض يشبه ذلك الذي ارتدته في حفل عيد ميلادها الخامس عشر، ويرتدي بابا بدلة فاتحة اللون وقميصًا أبيض وربطة عنق غليظة. لا بد أنه حسب نفسه في غاية الأناقة، هو المهندم المهيب المزهو، المعتاد على موضة المدينة.

اندثر هذا النمط من الثياب بمرور السنين، لهذا ضحكت فور أن رأيت بابا في هذه الصورة. تُرى ما الذي شعر به خوليان؟ هل احتفظ بها لطابعها التاريخي فحسب؟

لن أبالغ لو قلت إن ماما كانت طفلة بالكاد عندما تزوجت بابا؛ إذ تزوجت في سن السادسة عشرة، وهي السن ذاتها التي أتتني فيها الدورة الشهرية. على النقيض منها، كان بابا في حدود الخامسة والعشرين من عمره وسبق له الزواج. لم نتحدث قط عن زوجته الأولى ولا عن تلك الفترة.

الزواج: عقد، توقيع، بيع وشراء. وقعي على هذا السطر. هل قرأتِ البنود كلها؟

في الصورة أيضًا يظهر الجدان اللذان حينها لم يكونا جدين بعد؛ وإنما مجرد مزارعين متأنقين تفوح منهما رائحة الأزهار ويبدوان خائفين؛ إذ توحي نصف الابتسامة البادية عليهما بعدم الارتياح. إنهما متوتران وهو أمر مفهوم، فعلى الرغم من كل شيء، تمكن للتو هذا الشخص الواقف على يسار الجدة، ذاك الذي يرتدي ربطة عنق فراشية ولديه شارب صغير، من سرقة ابنتهما الوحيدة.

يسرق: يسلب، يختطف. يسرق قبلة، ويعيدها حينما تصبح بلا فائدة.

اعتقدت في البداية أنه يمكن محاربة الصمت بنقيضه، الضجيج.

أنا كاذبة، ففي البداية لم أعتقد أن هناك حاجة إلى محاربة الصمت.

«أخي لا يتكلم، وما المشكلة؟ أنا أتكلم بما فيه الكفاية».

لم تمضِ بضعة أشهر حتى بدأ الأمر يمثل مشكلة بالنسبة إليَّ، فعكفت على ملء الفراغ بكلماتي. خرجت الكلمات من فمي، بصورة محمومة وقسرية، كسيلٍ لا يمكن إيقافه.

أعتقد أنني في تلك الفترة أصبحت عاجزة عن التفكير بصوت منخفض. ها هي ذي المفارقة ذاتها التي طاردتني طيلة حياتي تباغتني مرة أخرى: من كثرة إجبار نفسي على فعل أمر بطريقة معينة، نسيت في النهاية ما هي الطريقة الأخرى. لطالما هربت من أفكاري لأن احتواءها يعني أن أقدم نفسي فريسة للصمت، حتى أصبحت غير قادرة على تنظيمها إلا وسط الضجيج.

عدت إلى الأكل بشراهة لكني لم أسترجع الوزن الذي فقدته، هذا لأنني قضيت أيضًا فترات طويلة من دون أن يدخل معدتي طعام. أسبوع من التخمة يليه أسبوعان من دون أن أذوق لقمة.

حاولت إقناع نفسي بأن خوليان -رغم صمته- متحدث جيد، لأنه ينصت، وأن يتحلى المرء بمزية الإنصات لأمر ثمين جدًّا، لا سيما بين أشخاص مثلي لديهم الكثير ليقولوه.

التحدث: التكلم، الثرثرة. لعبة بنج بونج. أقل الأشياء أهمية حين يتحدث المرء هو المحادثة نفسها.

أكثر موضوعاتي تكرارًا في ذلك الوقت: ميمو، حصصي المدرسية، سكان الحي، مستقبل بلدنا بعد الانتخابات، أشياء أراها على الإنترنت، بعض أساتذتي، المسلسلات التي نشاهدها.

اعتاد أن يحدق إلى طبقه بينما أتكلم خلال الإفطار، وبين الحين والآخر يرفع نظره نحوي حتى بدا في بعض المرات أنه على وشك الإدلاء بتعليق.

في بعض الأحيان بدت على وجهه نظرة غريبة، كأنه أَيِّل مختبئ وراء شجرة؛ إنها إيماءته المعتادة حينما يشعر بعدم الأمان، إيماءة متجهمة ورقيقة في الوقت نفسه، وما زلت أعاني لتفسيرها.

«اللعنة يا خوليان، قل شيئًا».

حينئذ يلجأ إلى العبارات الجاهزة ذاتها التي يتملص بها دائمًا من الإدلاء بتعليقات حقيقية؛ إنها أوراق «الجوكر» الكامنة ضمن مجموعته، ردود مقبولة اجتماعيًّا.

«أسمعكِ جيدًا».

«كم هذا سيئ».

«حسنًا».

كان التحدث أمام المرآة ليقودني إلى النتائج ذاتها، ورغم ذلك بحثت عن التواصل البشري الذي شعرت بأن خوليان يستطيع أن يمنحني إياه لو انتظرته قليلًا فحسب. اعتدت أن أفكر: الأمر يقترب. ازداد كلامه هذه الأيام، ما يعني أنه يخرج من عزلته. قليل من الصبر وسيأتي التغيير، لا يمكن أن يتأخر كثيرًا.

حينما رأت خوليان للمرة الأولى، قالت آنا إنه يبدو لها غريبًا، لكن بمرور الوقت تغير رأيها تمامًا، من يدري على أي أساس. أخبرتني ذات يوم بأن أخي يحمل قلبًا طيبًا جدًّا، ومن الجميل أن يكون المرء بقربه.

القلب: عضلة جوفاء تعمل وحدها، شكل رمزي، ورقة لعب، مركز. قد يؤدي تسارع متهور إلى السكون الأبدي.

يرغب الأجوف ويستطيع أن يكون ممتلئًا.

كان خوليان لطيفًا مع الغرباء ومتجهمًا معي، فأخذت أفكر في أنه يشعر بالثقة في ذلك البيت الذي نشيِّده رويدًا رويدًا، لهذا تجرأ على إظهار طبيعته الحقيقية لي، طبيعته القاسية. تركني أجتر كلماتي وتجنب الإجابة عن بعض أسئلتي، وفي بعض الأحيان أطفأ النور وأنا ما زلت في الغرفة، ثم اعتذر بكل سهولة.

لا أعرف لماذا أهتم برأي آنا إلى هذا الحد، ربما لأنها اعتادت أن تُطلق أحكامًا على كل شيء تقريبًا، كشخص يعرف ما يتحدث عنه. في معظم الأحيان كانت أحكامها صائبة، أو على الأقل مثيرة للاهتمام. «البيتزا أحلى وهي باردة». «الأشخاص الذين تربوا بين أجدادهم يكونون أكثر نبلًا».

ورغم ذلك، لم أسألها قط عن رأيها فيَّ.

الرأي: الحكم، الفكرة، الملاحظة. إبداء الرأي في شيء يعني امتلاكه.

لا أستطيع أن أشرح بدقة ما هي الصفات الكامنة في الحزن ليبدو -من وجهة نظر معينة- جذابًا إلى هذا الحد، ولا سيما بيننا نحن المكسورين، فهو يتحلى ببعض الخصائص التي تغري الطامعين منا في تحقيق الأهداف، الهشاشة من بينها.

صعبٌ أن ينظر المرء إلى الحزن وألَّا يفكر: «يمكنني فعل شيء هنا».

حينئذ تنفتح نافذة من الاحتمالات والمشاريع والنماذج المصغرة، وتخيل مستقبل واعد.

«لم أستطع إنقاذ نفسي، لكن ربما أستطيع مداواة شخص آخر».

وما إن تجف الدموع حتى تبدو العينان مستعدتين للنظر إلى الأمر بطريقة مختلفة تمامًا، كأنها المرة الأولى.

لكن لا وجود للمرات الأولى، إن هو إلا تكرار أبدي للحدث المبهم نفسه. الدموع لا تكوِّن الأنهار، بل المستنقعات.

تعوَّدْ على البكاء.

يظهر المطبخ شبه فارغ، ثمة صناديق على الأرض تدل على أنها أول أيام وصولنا إلى مبنى العائلات السكني. تصب ماما الحليب في كوب، وتطوي الجدة ثيابًا فرغت من غَسْلِها، بينما أتناول الإفطار على مفرش مزين برسوم ليلة عيد الميلاد. يفسر برد الشتاء ارتداءنا لطبقتين من الكنزات.

صوَّرَنا أخي من دون أن ننتبه، إذ تبدو علينا جميعًا أمارات الدهشة. يمكنني تخيل صوت الجدة حينها: «يا بني، ما هذا الجنون الذي تفعله؟»

تغيرت الحياة إلى حد ما بعد انتقالنا، فالبيت جديد لكننا لسنا كذلك. وصلنا معًا إلى تلك الشقة محملين بآلامنا الخاصة. لم تتمكن الجدة من اعتياد الوحدة وبدأت الشيخوخة تنغص حياتها: أحيانًا يداها وأحيانًا قدماها. أنا وأخي، في ذلك القلق الناجم عن نشأتنا بلا أرض ثابتة، بلا استقرار من أي نوع، جدران مكسورة لشخصين مكسورين، طفلان نصف مسلحين. أنا وخوليان، مخلوقان مسؤولان عن مخلوق آخر غير مكتمل، ماما. امرأة خزفية واهنة، لكي تمضي إلى الأمام اضطرت إلى تركنا في الخلف. تَركي أنا على الأقل، وليس خوليان. ظلت تدفع الفواتير وتُعد العشاء، وتتفاوض مع بابا عبر الهاتف وظهرها إلى الجدار.

الظَّهر: الماضي، الخلف. النظر إلى ظهر أحدهم فعلٌ أحادي. لا ينظر ذلك الشخص وراءه، فربما يرى ظهر شخص آخر.

أعرف أن ماما تغيرت بمرور السنين، وأنها لم تعد ذلك الشخص المرتعش والباهت الذي رباني أنا وخوليان، لكنها عاشت ذلك التحول بمفردها، لم أشهده ولا يمكنني حكايته. اضطرت إلى الابتعاد عنا لتعثر على نفسها، فلم نرها في البيت إلا نادرًا. كانت غائبة حتى وهي تنظر إلينا، حتى وهي تتحدث معنا وتطلب منا أشياء وتملأ لنا البيت بالحيوانات. ماما، شبح في غرفتي، في مرآتي، وساكنة في عالم أخي. موجودة وغير موجودة، تحبني ولا تحبني، تنكسر وتُصلح نفسها بلا مساعدة من أحد، في صمت، في الخفاء.

ظل العيش مع خوليان يحبطني، ثمة أيام أغضبني فيها حتى لم أعد قادرة على الهدوء إلا بالشرب، فاعتدت الخروج إلى الحانات للتحدث مع الغرباء كي أثبت لنفسي أن خوليان هو المشكلة وليس أنا، هو الذي يحكم عليَّ بالصمت والأمر ليس تقصيرًا مني، بل إن هذا الإحساس بالنقصان وغياب المهارات الاجتماعية ناتج عن إقامتي الطويلة معه. نسيت كيف أتعامل مع الناس بعد قضاء أيام وشهور أتحدث مع حائط.

هكذا تعرفت إلى ميمو الثالث، في إحدى الحانات وأنا ثملة وفي وضع غير لائق أبدًا. لا أتذكر حتى ما قاله لي ولا كيف بدأ الأمر، ما أعرفه أننا في الثانية فجرًا كنا نتبادل القبلات. لم يرغب في النوم معي ليلتها، لكنه رافقني إلى البيت وظل نائمًا إلى جوار السرير.

اعتاد خوليان أن يُعد لي القهوة كل صباح، وحينما رأى أننا اثنان، وضع مزيدًا من الماء في مكبس القهوة.

قائمة الأشياء التي أعجبتني في ميمو الثالث:

شعره المجعد الذي ذكرني بشعر الجدة.

ضحكته.

شقته المزينة بزهور الأوركيد.

الطريقة التي ينطق بها اسمي: يتلذذ به على مهل أو يتجنب أن يخطئ فيه.

حديثه الخفيف والجذاب.

صوته القبيح جدًّا، وهو عيب وسط كل هذا الكمال.

بهجته.

حسه الفكاهي.

خفته.

ولعه بجسدي.

طريقته في الشرب.

أنا وميمو الثالث في إحدى عربات لعبة ميكانيكية؛ إنها الأفعوانية الأكبر والأكثر درامية في المكسيك. في أكثر المنحنيات انحدارًا ثمة كاميرا شبه مخفية بين القضبان الخشبية، تلتقط صورة يمكنك أخذها لاحقًا مقابل عشرين بيزو.

اشترى خوليان تلك الصورة ثم احتفظ بها.

يرفع ميمو الثالث ذراعيه منتشيًا من دون أن يخاف شيئًا، ويرتدي سترة خضراء. أما أنا فأظهر متقوقعة، عيناي مغمضتان بإحكام وشعري هائج وأبدو مرتعبة. ندمت لأنني ركبتها، وأتذكر شعوري في بعض المنحدرات بأنني سأموت.

قبل مغادرة المنزل أخذت أقرأ عن الحوادث التي وقعت في مدينة الملاهي تلك، لكن ميمو أخبرني بألا ألتفت إلى أخبار الصحافة الصفراء.

«الحوادث تقع في كل مكان. يمكن أن تصدمك سيارة ها هنا في قلب الدوران المروري».

لم يُدلِ خوليان برأيه لأنه لم يفكر في ركوب أي لعبة بأي حال، وظل يتابع نزهتنا كلها من الأسفل، على الأرض الثابتة.

شعرت بالإحباط الشديد من دور المتفرج الذي تقمصه خوليان. أراد الاندماج معنا ولم يجد سوى هذه الطريقة: قضاء وقت ممتع بلا مشاركة فعلية. رضيت بالأمر على مضض، لكن بمرور الوقت بدأت

نظراته تزعجني؛ إذ شعرت بأنني حيوان في حديقة. ظل يراقب كل شيء: محادثاتي مع ميمو وشجاراتنا وذهابنا ومجيئنا بين ألعاب الملاهي، من دون أن يتحمس للمشاركة، كحال من يشاهد فيلمًا. في النهاية ستُضاء الأنوار من دون أن يشارك بدور حقيقي أبدًا، سيخرج من السينما في هدوء، بمشاعر مضطربة بعض الشيء لكن يمكن السيطرة عليها.

قلت له: «لماذا أردت المجيء إن لم تكن ستركب؟ هذا إهدار للمال».

لم يرد.

اشترى تلك الصورة من ورائنا، وأرانا إياها حال عودتنا إلى المنزل فربَّت ميمو على ظهره.

«من الرائع أنك أتيت معنا، أتمنى أن تكون قد استمتعت».

ثم دخل المطبخ وأعد لنفسه شطيرة قبل أن يغادر.

ابتسم خوليان بعدما ودعه على الباب.

مختصر لإيماءات خوليان وترجمتها:

رفع الكتفين: أريد إنهاء هذه المحادثة.

حك الذقن: لا أعرف ماذا أقول.

فرك الجبهة: لا أتذكر.

لوي الشفتين: أنا لست مرتاحًا.

عض الخدين من الداخل: أنا لست مرتاحًا على الإطلاق.

طقطقة الأصابع: أنا متوتر.

تمسيد الأسطح المستوية (منضدة، أريكة، دفتر): أنا أتهرب.

النظر إلى الأعلى: أريد الفرار.

النظر إلى الأسفل: تمكنت من الفرار.

نشأت بين ميمو الثالث وخوليان علاقة قريبة إلى الصداقة، واضطلعت أنا بدور مترجمة أخي أمام العالم، لكن لم يبدُ هذا ضروريًّا مع ميمو، فقد تواصلا بشفرات أخرى. فيديوهات لأناس يؤذون أنفسهم، ولعبة الفيديو «هالو»، وشطائر لحم الخنزير، وعصير الموز.

يترجم: يفسر، يفك الشفرات. يحول نوتة موسيقية إلى صوت. يرى ما يرغب في رؤيته، ويقول الملائم فحسب. ينقي. كيف يمكن ترجمة الصمت؟

لطالما احتجت آنا على معاملتي لأخي، وفقًا لتعبيرها. قالت إنني أستخف به وأعامله كمتخلف عقلي، في حين أنه مجرد شخص صامت. لم أعرف كيف أجعلها تفهم أن الصمت قد يصبح غير محتمل.

أنا وميمو وآنا وخوليان، نوع من الأسراب كوَّنته الصدف البحتة. نجح انسجامنا السطحي في إخفاء حقيقة أنني بدأت أستعيد ضغائن قديمة، فخلال مشاجراتي مع خوليان انحاز إليه ميمو في بعض المرات، وكذلك آنا، حتى أصبحتُ مرة أخرى خارج الفريق: على مقاعد البدلاء. أنا المبالِغة، الخائنة.

وأخي، الحيوان المجروح الذي يرغب الجميع في حمايته. ماما بحضنها وبكل المودة التي تحملها في هيكلها العظمي ذي الخمسين كيلوجرامًا، الجدة وطفلها الأبدي، فتاها ذو الشعر المسترسل، خوليانها المعشوق، المثالي. أخي، آخر صورة عبرت برأس الجدة قبل موتها.

بعض الكلمات[1] التي اعتادت الجدة أن تقولها ولم أسمعها مجددًا منذ موتها:

كركبة.

زي الرز.

حويط.

كمكمة.

زناخة.

موكَرَا[2].

نافوخ.

عفرتة.

صباع الست[3].

---

(1) الكلمات التالية وردت في النص بعامية ليست شائعة بين أبناء الجيل الحالي وإنما جيل الأجداد والجدات، لهذا ارتأيت وضع مقابل لها بالعامية المصرية يحمل الخصائص نفسها، ومعناها: «كركبة: فوضى - زي الرز: كثير - حويط: يتحلى بالحيطة أو الحذر - كمكمة: رائحة القماش المبتل الذي لم يجف جيدًا - زناخة: من الزنَخ وهو رائحة الدهن في الأواني التي لم تغسل جيدًا - نافوخ: رأس الإنسان - عفرتة: فرط الحركة والنشاط». (المترجم).

(2) نوع من الأحجار يكثر وجوده في المواني. (المترجم).

(3) اسم تطلقه العامية المصرية على الموز صغير الحجم، ويسمى في المكسيك «Cientoemboca» وتعني حرفيًّا «مئة في الفم». (المترجم).

ماتت الجدة صباح يوم الأحد الذي خططتْ فيه أن تُعد بيضًا بالصلصة، واشترت «التوماتيُّوس»[1] منذ يوم الجمعة. أخبرتنا ماما بالتفاصيل عبر الهاتف، فوقفت أنا وأخي برأسين ملتصقين ببعضهما والسماعة بينهما، مثلما اعتدنا أن نفعل في صغرنا كلما أردنا الاطلاع على سر تتحدث عنه ماما في الغرفة المجاورة.

حملت الجدة الصخب إلى عائلة صامتة وكسرت كل قاعدة من القواعد الصارمة للعيش في المنزل، وسأقتبس من كلامها لأقول إنها «نشرت الفوضى». ثرثرات ووقاحات وحيَل وروائح كريهة. أهدتنا الجدة وجودها الظريف والمبهج، ذلك الشعور بالثقة الذي أثمر الحب عنه، ولم نعرفه حتى تلك اللحظة.

زرعت الجدة شجرة برتقال لتتحدث مع الجد. تُرى أي نوع من الأشجار كانت؟

الجدة: شجرة لوز، شجرة جكرندة. شجرة بورسيرا سيماروبا في غابة استوائية. شجرة أَرز، شجرة خشبية.

عرضنا على ماما أن نأتي لنكون معها، فرفضت متعللة بأن كل شيء سيحدث بسرعة. لم تحظَ الجدة بأصدقاء تقريبًا فارتأت ماما أنه لا حاجة إلى إقامة عزاء، ستدفنها وانتهى الأمر.

---

(1) فاكهة مستديرة خضراء اللون تشبه الطماطم وتُعرف أيضًا بـ «الطماطم الخضراء»، وهي مكون رئيسي في الأكلات المكسيكية. (المترجم).

لطالما احتجنا أنا وخوليان إلى أمر لتنفيذه، وعجزنا عن اتخاذ قراراتنا بنفسينا وعن تحمل مسؤولية أقل الأمور سواء أكان حضورًا أم غيابًا، لذلك أطعناها. بكينا كثيرًا، وحيدين في شقتنا، وبات كل شيء مختلفًا منذ تلك اللحظة.

أفكر أحيانًا أنه ربما منذ ذلك اليوم بدأت تدور في رأس خوليان فكرة عدم رغبته في الانتماء إلى عالم لا توجد فيه الجدة.

قرأت ذات مرة أن الصمت وداع، وأنه الموت الأول بصورة ما.

بعض الجنائز احتفالات صامتة، حيث يكتم البساط المفروش أصوات الخطوات، وتبدو الكلمات عالقة في شباك عنكبوت سوداء. الملابس سوداء، والحداد أسود، والغربان صامتة، والأعين مغمضة، والحزن ستار أسود يغطي ضخامة العالم.

لم تحظَ الجدة بجنازة، لكنها حظيت بوداع. أسدلنا ستائر الشقة وأشعلنا شمعة وشاهدنا نورها يستحيل رمادًا. لا مزيد من صوت الجدة، لا مزيد من ضحكتها على الجانب الآخر من الهاتف، وحلَّ الغور مكانها.

الصمت في الحياة أبيض، وفي الموت أسود.

كان صمت أخي وداعًا دام طيلة حياته.

بعد مرور أيام قليلة على موت الجدة، وجدتُ قطًّا صغيرًا أسود في مدخل البناية، وحين يتعلق الأمر بالجدة يستحيل أن تكون مصادفة.

صار تَخيُّل الأشياء التي كانت لتقولها تمرينًا بالنسبة إليَّ، وما زلت أحاول انتشال نفسي من الغور حتى اليوم.

«يا فتاة، خذي ذلك الحيوان. ارمحي إلى هنا، فالقط الصغير لا يأكل إلا بين الحين والحين».

كان خوليان يشاهد التلفاز واضعًا ساقيه على المنضدة، حتى سمع مواءً فأدار رأسه ورمقني باحثًا عن تفسير. ثمة مرات خلقتُ فيها توترًا شبه تنافسي بيننا، حين أعرف أنه دوري في الكلام فأتحداه لينطق بالجملة الأولى، لكنه لم يفعلها قط.

«عثرتُ عليه. هل نحتفظ به؟».

أخذه بيديه وصنع له فراشًا صغيرًا في سترته، وبدا كلاهما قذرًا وبائسًا. عاد خوليان أدراجه واستقر مجددًا أمام التلفاز، بينما القط الصغير نائم على صدره. لم يكن في حاجة إلى الماء أو الطعام، بل إلى الحنان فحسب.

تحلى ميمو الثالث بسخاء مضاعف؛ إذ لم يكن لديه مال تقريبًا ومع ذلك ظل يشاركنا القليل الذي يتلقاه. اعتاد أن يطلب البيتزا في الأيام الأولى من كل شهر، حينما يودع له أبواه نقودًا في حسابه، وقلما طلب منا معاونته في شراء الجعة.

يعاون: يؤازر، يساعد، يجمع. عدد من الأجزاء يكوِّن «الكل». لا أحد يملي على النمل ما يجب عليه فعله، ورغم ذلك يفعله.

اعتادت ماما أن ترسل المال إليَّ أنا وخوليان عن طريق «ويسترن يونيون»، كأننا نعيش في بلدين مختلفين. غالبًا ما وصلت الحوالات باسمي، فأستلمها ثم أعطي خوليان جزءًا منها.

لطالما أغاظتني الحركة التي يطلب بها خوليان ماله، إذ يمد يده أفقيًّا إلى الأعلى ويفتح كفه على اتساعها. ثمة عدوانية كبيرة في تلك الحركة، لكن الأمر استغرقني شهورًا لإدراك ما يزعجني، ألا وهو سخافة هذا التعبير الطفولي، كأنني والدته. أو ربما هي عجرفة الأشخاص الذين يظنون أنهم يستحقون كل شيء. لم يكن يدرس ولا يعمل، ومع ذلك يطالب بالمال. لم يتكرم حتى بالتفوه بكلمة، بل يمد يده وشكرًا. على الرغم من كل شيء كنت خبيرة في لغته، وانتابتني الرغبة في قطع هذه اليد.

كان ميمو الثالث يعانقني لكي أهدأ، ولم أعرف هل يفعل هذا من أجلي أم لحماية خوليان. تحولت الحياة إلى كومة من الأشياء الغامضة

والتفسيرات اللانهائية للفعل نفسه؛ إذ يمكن تفسير كل شيء دائمًا بأسوأ طريقة.

غامض: أقل وضوحًا، ملتبس. نعم تعني لا. لا تعني ربما. ربما تعني أبدًا.

أصابنا خوليان بعدوى طريقته في رؤية العالم. لون رمادي، يبعث على التشاؤم والكآبة، ويغمر الواقع الذي أمكن أن يزهو بالألوان.

طورتُ أنا وخوليان وسيلة خاصة لنتواصل بها فيما بيننا، ففي ظل امتناعه عن الكلام تعلمت قراءة صمته كأنه رسائل. أصابني الأمر بالجنون، لكنني على كل حال أحببته وأصررت على التحلي بالصبر معه.

كنت على وشك خسارة وطني، وعليَّ أن أتشبث بمزيد من القوة في ما تبقى منه.

رغم كونه نحيفًا وأثيريًّا، لم يستطع التحكم في تأثير وزنه على ألواح أرضية الشقة، فوشَت طقطقة الخشب بمكان سيره. الحمام، المطبخ، عائدًا إلى غرفته.

لم يشغِّل أسطوانات أو يفتح الراديو، كما لم يمتلك جهاز «آيبود»، ومع ذلك بدا دومًا كأنه يضع سماعات أذن تحت القلنسوة السوداء. كان تجرده من العالم كليًّا في بعض الأحيان.

في الأسبوع الأول الذي حظينا فيه بالقط الأسود الصغير، اقترح أن نسميه هوجو ونعلق به جرسًا.

قلت لخوليان: «وواحد آخر من أجلك»، لكنه لم يضحك.

أوضح لي ميمو الثالث أن الأجراس تعذب القطط المسكينة. «تخيلي أنك تحملين منبهًا يرن في أذنك طيلة الوقت».

فنزعنا الجرس من هوجو.

كان هاتف ميمو يتلقى رسائل طيلة الوقت، وقلما كتم صوته، حتى صار البقاء معه أشبه بالسير إلى جانب قط يحمل جرسًا.

قلت له ذات يوم: «تخيل أنك تحمل منبهًا يرن في أذنك طيلة الوقت»، بعدما ضقت ذرعًا بإشعاراته المستمرة التي تشتت انتباهي عن التلفاز.

نهض واقفًا فرميته بطبق رقائق الذرة الحلوة[1] الذي تشاركناه، وفي تلك اللحظة أدركنا أن خوليان يقف وراءنا منذ مدة ويشاهد التلفاز في صمت، كطفل لم يدفع ثمن تذكرة السينما.

صاح ميمو: «أيها الوغد، لماذا عليك أن تكون بهذه الغرابة اللعينة؟»، ثم خرج من الشقة.

جلس خوليان بجانبي وخلع حذاءه بحركات خرقاء من قدميه. غيرنا البرنامج، وبعدها بقليل دخل المطبخ وعاد بطبق جديد من رقائق الذرة الحلوة.

(1) حبوب من الذرة على هيئة رقائق مغطاة بالسكر. (المترجم).

أطعمة أخي خوليان المفضلة:

كعكة جانسيتو مارينيلا[1].

رقائق الذرة الحلوة.

حبيبات «اسكيتلز».

دوناتس «بيمبو».

رقائق بطاطس «رافلز» الأخضر.

بيض بسجق الخنزير.

«الهوت كيكس»[2].

كل أطباق الجدة.

---

(1) منتج تجاري عبارة عن كعكة شبيهة بكعكات «تونكيز». (المترجم).

(2) وردت في النص الأصلي مكتوبة «Hot cakes» بالإنجليزية، وفضلت الإبقاء عليها بهذا الشكل حفاظًا على روح النص. (المترجم).

يظهر أخي بتلك الابتسامة الصافية والجديدة التي لم يحظَ بها إلا في الخامسة من عمره؛ إنها الصورة التي طلبوها منه ليلتحق بالمدرسة الابتدائية. ينظر إليَّ من قلب الغور، بأسنان دقيقة وغمازة في الخد الأيسر، ويحاول إخباري بشيء ما. هل تريدني أن أخرجك من هناك يا أخي الصغير؟

شعره مسترسل إلى درجة لا يحتاج معها إلى التمشيط. حين عشنا في شقة واحدة، لاحظت أن عبوات غسول الشعر الخاصة بي وبميمو لا تنقص، فافترضت أن أخي لا يستخدمه. لم يسرق شيئًا من العالم لأنه لم يساهم فيه بشيء، لكنه احتفظ ببعض الأشياء، كالمشط الذي أهداه إلينا السيد تشيتو في طفولتنا، الأزرق له والوردي لي، مشط بلاستيكي ناعم بلا نتوءات.

حدث هذا في العام الذي رحل فيه بابا عن المنزل. أخذ الناس ينظرون إلى ماما بشفقة، كأنهم يريدون مساعدتها وفي الوقت نفسه يخافون أن تُعديهم بمرضها. يعتقد كثير من الناس أن الوحدة نوع من المرض، وأنا أيضًا أظن ذلك في بعض الأحيان.

كان دون تشيتو من القلائل الذين عاملوا ماما بصورة طبيعية. ألح عليها لتتركه يصبغ شعرها لكنها ظلت تقول لا، شكرًا، أرغب في المعتاد فحسب.

سأل تشيتو: «وماذا عن السيدين الصغيرين؟».

«خفيف من الأجناب وقصير من الأعلى لأجله، وافعل للفتاة ما ترغب فيه».

كثيرًا ما انقطعت الكهرباء في صالون تشيتو الواقع في وسط المدينة، بجوار متجر البضائع الصينية. لا أعرف أي اختبارات كانوا يجرونها في ذلك المتجر، لكن الكهرباء انقطعت بصورة متكررة.

يوم أن أهدى إلينا تشيتو المشطين، ولدى انعطافنا من المربع السكني، وجدنا الباعة قد أخرجوا لتوهم بضائع العروض، وإذا بي أرى مشطينا وسط حشد من مئتين غيرهما. أمشاط تباع بالوزن، عرض حصري لليوم. وكزت أخي في ضلعه ليرى ما رأيته، لكنه أسرع الخطى ليزداد التصاقه بماما التي مدت إليه يدها لعبور الشارع. كانت إشارة المرور حمراء.

حكيت أحلامي لأخي على الإفطار. «كنت مع ماما في سيارة». توقف عن تحريك فكه ووضع شطيرة «الكيساديًا»[1] في الطبق، فاعتبرتها بادرة اهتمام. حكيت له تفاصيل من الحلم وما اعتقدت أنه يعني شيئًا، فأومأ في صمت. إن أشد المحللين النفسيين استقامة واقتناعًا بفكرة المسافة الآمنة بين الطبيب والمريض، كان ليُلقي تعليقات أكثر من خوليان.

«حلمت أنك أهديت إليَّ قطًّا ميتًا». هو: ابتسامة خفيفة.

«حلمت بأشكال هندسية». أصابعه العظمية ترسم معينات على طاولة المطبخ.

لم أداوم على حكايتها له، وإنما حين اعتقدت بأنها قد تثير اهتمامه فحسب.

كان خوليان قليل النوم، يستيقظ في منتصف الليل ويقضي ساعات في الحمام أو المطبخ، وأحيانًا يخرج للتمشية في الحي. ذات مرة فكرت في تتبعه، أردت أن أعرف ما الذي يفعله في تلك الجولات الليلية، في ظل إغلاق جميع المحلات ووجود قليل من الناس في الشارع. فكرت في احتمالية شرائه للمخدرات.

---

(1) شطيرة مكسيكية مثلثة الشكل، تصنع من خبز التورتيًا والجبن ومختلف أنواع اللحوم والخضراوات. (المترجم).

تتبعته إلى عدة مربعات سكنية حتى بدأت أدرك سخافة المشهد الذي لم يفعل فيه شيئًا سوى المشي لساعات. في بعض الأحيان دار دورة كاملة حول مجموعة من البنايات، أو قطع جادة في اتجاه السيارات ثم عبر نحو الرصيف الآخر وقطعها في الاتجاه المعاكس. سار واضعًا يديه في جيبَي سترته، فأسرع بعض الأشخاص في خطاهم حينما صادفوه أمامهم.

ثمة أيام استيقظت فيها صباحًا فلم أجده في الشقة، لأنه ذهب لشراء عصير البرتقال. هنأته على نشاطه واستيقاظه الباكر، إلا أن هالاته وشت بأنه لم ينم طيلة الليل، وأن نزهته الليلة امتدت وقد عاد لتوه إلى البيت.

أحيانًا يكون الالتباس أفضل من الوضوح، أن يعيش المرء بعينين نصف مفتوحتين. في دوار الهذيان، لا تتباين الأشياء عن بعضها إلا بفوارق طفيفة. ما من شيء مطلق سوى الغثاء الكثيف الذي يحاصرنا جميعًا: أحيانًا شيء، وأحيانًا شيء آخر، وربما لا شيء.

في الوضوح لا يوجد مجال للخداع. ليس بوسعك أن تتفادى الحقيقة حين تصدمك، وبمجرد انكشافها يصبح المرء بلا حيلة سوى الإنكار.

يكشف: يعرض، ينشر. تنكشف الصور لتعرض لنا صورة لا نعرفها.

من المريح ألا أعرف ما حدث لأخي. لا بد أن الحقيقة موجعة، لكنني لم أعرفها.

على الرغم من كل الصدمات التي كسرتني، فاكتشاف أن أخي لم يرغب في الحياة كان بلا شكٍ أسوأها.

أكد خبير على شاشة التلفاز أن مكتبًا غير منظم يدل على عقل غير منظم، ولا حاجة إلى الحديث عن غرفة كاملة في حالة كارثية، غرفة أخي خوليان.

هكذا صارت غابة أخي من القمامة والأطباق المتسخة هي الدليل على صعوبة اختراقه نفسه. تكونت أرضية الشقة من ألواح خشبية، أما أرضية غرفته فعلى الأرجح من البلاط أو الأسمنت أو التراب أو الجمر المشتعل؛ فما من قدرة على تمييزها من بين بقايا الطعام والقمامة التي يخلِّفها وراءه.

اعتدت أن أوجه إليه تحذيرًا بسيطًا عند نفاد الأواني: «سأدخل غرفتك». بعدها بدقائق يخرج بأربعة أو خمسة أقداح يحملها من آذانها بأصابعه الطويلة.

صار من عاداتي التسلل إلى غرفته عند خروجه من المنزل. كنت أتطفل، لكن دفاعًا عن نفسي قلت إنني أدرس علم الآثار. انتقدني ميمو لكنني كررت: «هذا لمصلحته»، بينما أتفحص فواتير متجر «أوكسو». الحقيقة أن الأمر كان لمصلحتي أنا، إذ أردت أن أعرف ما الذي يشتريه. (جانسيتو، رافلز، مرطبات)، احتجت إلى معرفة من يكون أخي.

تألم خوليان من كل شيء لكنه لم يشكُ إلا نادرًا، لذا كانت مساعدته أمرًا مستحيلًا.

«أين موضع الألم بالضبط؟ أشر إليه بإصبعك. أهي ذكرى معينة؟ جرح سيئ الالتئام؟ أهو اضطرارك إلى العيش في حالة دائمة من الشعور بعدم الأمان منذ الليلة التي رماك فيها بابا من النافذة؟».

عاش متألمًا لسنوات، منذ طفولته. خففت الجدة من ألمه بالعلاج والتدليك، لكنه ظل مريضًا؛ إذ كف عن الكلام وأخذ يبكي على كل شيء.

لطالما قال بابا إننا محض مبالغَين. أقسمَ إنه لم يتركني محبوسة في الحمام طيلة إحدى عطلات نهاية الأسبوع، ما الذي قد يحدث، إنهما بالكاد ساعتان أوصل فيهما صديقته إلى محطة الحافلات.

لم نؤنبه قط على مسألة النافذة. سينفي أنه رماه؛ إنما هي دفعة صغيرة ليكف ذلك الطفل المريع عن الصراخ بصوته الشبيه بنقار الخشب، ومن عشقه للدراما تسببت لمسة صغيرة من لا شيء في دفع كيلوهاته العشرين نحو بلاط الفناء.

أمضى خوليان المسكين بضعة أسابيع وهو يسير بجبيرة، وجعلته نحافته في حالة يرثى لها وهو يحمل تلك الكتلة الحجرية إلى كل مكان. قالوا إنه لا يوجد كسر، فعظام الأطفال لينة جدًّا، إنما هو مجرد شرخ. «من حسن حظك يا بطل».

الشرخ: الصدع، فتحة يندس فيها شيء ما. خط يمكنه أن يقسم «الكل» إلى جزئين.

أحببت وجودي مع آنا لأنه ألهاني عن مشكلاتي، رغم معاناتها الدائمة مع مشكلات غالبًا ما بدت أكثر إثارة للاهتمام. سوء تفاهم في العمل يؤدي إلى إقحام أشخاص من دول أخرى، أو دعاوى عن حقوق المؤلف مع محامين. عملت في تلك الفترة مترجمة لصالح دور نشر أوروبية، غير أن حياتها الشخصية اتسمت بالإثارة ذاتها: مواجهات ملحمية بين جيران عكري المزاج، ومآسٍ عائلية لا يمكن حلها.

كانت آنا مكسورة أيضًا، لكنها عبرت عن ألمها بطريقةٍ لنقُل إنها مباشرة أكثر: صراخ وبكاء وتوسلات للمساعدة ورغبة في الموت. عانت من مرض مناعة ذاتية، أي أن جسدها يقضي على نفسه. أخذت آنا كل شيء في طريقها، حريق آخر لا يسعك إلا التحديق إليه.

اعتاد أخي أيضًا إلهاء نفسه، فقد عانى من مرض مناعة ذاتية كحال آنا. كان مرض خوليان هو خوليان.

وماذا عن مرضي؟

عانقتني آنا عندما حكيت لها مسألة والديَّ وتلك السنوات البشعة التي نسميها بالطفولة. وعلى الرغم من أنني لم أسمح لأحد بمعانقتي في تلك الفترة، فقد سمحت لها بذلك. أخبرتني أيضًا بأنني أتحلى بقيمة وشجاعة كبيرتين.

الشجاعة: قوة جسدية أو عاطفية.

القيمة: فائدة شيء أو شخص. سعر الصرف.

عملة وطني مرآة دائرية يُطل منها المرء على الماضي. القيمة. أخي غالي الثمن. ما قيمة ذكرياتي في هذا البلد السخيف الذي بنيته بيديَّ؟ ما مقدار الشجاعة في فرار المرء بعينين مغمضتين؟ وما مقدارها لو فتحهما مجددًا ليجد نفسه في ظلام غرفة بلا نوافذ؟

شغلت التلفاز بأعلى صوت على أمل أن يقترب أخي، لعله يستسلم لزعيق الإعلانات التجارية الحماسي ويأتي للجلوس معي. تعرض القناة الثقافية وثائقيًّا عن الطبيعة: ثمة ناشط يعرض دلفينًا في إحدى مدن الملاهي ووجهه ينضح بأمارات السخط. قال الناشط بحنق: «ابتسامة الدلفين خداعة، فهي علامة على الرعب والتوتر نفسرها بحماقة على أنها مودة».

كان أخي قادرًا على الابتسام حين أطلب منه. إذا أخبرته بأنه يبدو جميلًا بعد الاستحمام، أو سألته عن رأيه في الهدية التي أحضرتها له من متجر «أوكسو»: ابتسامة. «هيا لتتناول الإفطار، أعددت لك بيضًا بالسجق»: ابتسامة. أحيانًا بالغ في المحاولة حتى ظهرت أسنانه وضروسه كشبل يتعلم كيف يكون مخيفًا.

بدت أنيابه بارزة بعض الشيء، وإلى جانب نحافته وهالات عينيه، لم أكن لأتفاجأ لو ظنه أطفال الحي مصاص دماء.

أنا أيضًا أبتسم. ليس هذا فحسب، بل أفسر الأمر بأسوأ طريقة ممكنة حينما لا يبادلني أحدهم الابتسامة؛ إذ أشعر حينها كأنهم يتجاهلون يدي الممدودة.

تعلمت منذ طفولتي الباكرة أن أفوز بمكاني في العالم. وجودي وحده لا يكفي، لا بد أن أساهم بشيء، وإن لم أضِفْ جمالًا فعلى الأقل أضيف الفكاهة، فأصبحت كثيرة النكات. أتذكر أن معلمات الصف الثاني والثالث الابتدائي تسلين كثيرًا بنكاتي وهن يصفقن: «أنتِ طفلة مرحة»، فتتسع ابتسامتي، ويعلو صوتي.

إن مذيع البرنامج الوثائقي على حق؛ يرى الناس السعادة ولا يتصورون أن الابتسامة قد تخفي وراءها أشباحًا: الخوف والارتباك، وحوش قديمة مضى عهدها.

أصبحت خدومة وأجبرت نفسي على أن أكون طفلة ظريفة وجودها خفيف على النفس، يحب الآخرون أن يكونوا بالقرب منها. جعلتهم يدعونني إلى كل مكان، ويتقبلونني.

أكثر ما أردته حينها هو أن أغير السرب، وتخيلت احتمالية أن تتبناني عائلة أخرى، «أريد هذه الطفلة الظريفة في منزلي»، وهكذا تبدأ الحياة من جديد، بشكل صحيح هذه المرة. والدان جديدان، وأخ جديد.

سرعان ما أرهقني الخيال وما تبعه من إعداد مسرحي. نفدت طاقتي، وفهمت أن أحدًا لن يتبناني فلم أعد مهتمة بنيل الإعجاب. صرت عبوسة، وأسمتني الجدة بـ«المبوِّزة»[1]، واستحالت ابتسامتي جائزة على الآخرين أن يفوزوا بها.

ومثلما اعتدت أن أفعل معه، بدأ خوليان يُحضر لي هدايا من متجر «أوكسو».

---

(1) لفظ من العامية المصرية يستخدم لوصف الأشخاص العابسين أو المتجهمين، وبصورة أكبر مع الأطفال، وفضلت استخدامه لأنه يحاكي اللفظ المستخدم في النص. (المترجم).

مكتبة
t.me/soramnqraa

لطالما ارتدى ثيابًا سوداء. سترة مقاسها أكبر من اللازم ولها قلنسوة تصل إلى مستوى العينين، وثمة طبقة رقيقة من التراب تغطيه من قدميه إلى رأسه، حتى في الأيام التي وافق فيها على الاستحمام.

«رائحتك نتنة يا خوليان، على الأقل ضع مزيلًا للعرق».

كانت كلماتي أوامر في نظر أخي. «حان دورك لتنظيف المطبخ»، فيمتثل، ثم يتحرك ببطء وتمهل وهو يمسح السيراميك بالرقة التي يمسد بها المرء قطًّا نائمًا.

ثمة أمر واحد فقط لم يطعني فيه: «اللعنة، تكلم».

أحبَّ مرافقتي إلى المترو، وأعتقد أنه كان ثمة شيء خفي في إمكانية اعتنائه بي. بسبب حصة السابعة صباحًا اضطررت إلى الخروج من البيت والجو لا يزال مظلمًا. جعلَنا الذهاب معًا نبدو في مظهر أقوى، كفريستين يصعب النيل منهما في هذه المدينة التي تلتهم سكانها. على الرغم من ذلك ظللنا نشعر في داخلنا بأننا لا نزال الطفلين الجبانين كثيرَي الصياح، اللذين نعتهما بابا بـ «الشاذين الصغيرين» وقت غضبه.

انتعل خوليان حذاءه الرياضي وأخذ ينبش قمامة غرفته حتى وجد مفاتيحه. اعتاد أن يلف الأوراق النقدية ويضعها في جوربه.

تسببت مشيته المتمهلة والشبحية في العديد من الشجارات؛ إذ يجر قدميه كأن حذاءه أكبر من مقاسه.

«أسرع، لقد تأخرنا».

استجابةً منه بدأ في السير بخطوات واسعة وممتدة كخطوات الزرافة، وهو حل غير عملي، لأن الأمر سيكون أكثر عقلانية لو أسرع في خطاه. لم تتمثل المشكلة في بطئه فحسب، بل افتقاره أيضًا إلى البديهية، وهي الأعذار التي وجدتها لأشكو من كل ما يزعجني.

«إن لم ترغب في المجيء فليتك بقيت في المنزل».

خفض بصره وقلل من سعة خطواته، ثم وضع يديه في جيبَي بنطاله كطفلٍ وبخته أمه. الطفل: هو، دائمًا. الأم: أنا، أحيانًا.

ظل واقفًا في منتصف الرصيف، مثل كلبٍ ينتظر الأمر من صاحبه.

حينئذ فقدت السيطرة على نفسي ووصفته بالمتخلف عقليًّا، وأخبرته بأن أحدًا لا يرغب في البقاء معه لمثل هذه الأسباب. أدهشتني قسوتي. يمكن للمكسور أن ينكسر ألف مرة أخرى، أعرف هذا لأنني فعلته.

بعدها بساعات، اعتذرت إليه بقطعة من «جانسيتو مارينيلا» كبادرةٍ حسنة النية.

«سامحني، كنت في عجلة من أمري. أحب مرافقتك لي حقًّا».

أخذ الهدية في صمت وفتح الكيس بأسنانه، ثم انتظر خروجي من الغرفة ليأخذ القضمة الأولى. في اليوم التالي، رافقني مجددًا إلى المترو، لم يكف عن فعلها قط. نحيف ونِتِن، يحمل ورقة من فئة العشرين بيزو مخبأة في جوربه البالي.

تعلمتُ الكذب ليس بالكلمات وحدها، بل بالأفعال أيضًا. صار وجودي كله مختلَقًا، ومثلما يرفع الرياضيون من سقف تحديهم لأنفسهم كل يوم، أخذت أسأل نفسي: كيف سأدعِّم هذه الكذبة الجديدة؟ ثم أبدأ في تشييدها كبناءٍ بارُوكي مفعم بالتفاصيل الفارهة وغير الضرورية. أحدثت قصصي ارتباكًا، فاحتار الناس بين تهنئتي والإشفاق عليَّ.

أنا التي أشفقت عليهم، لاعتقادهم أن الفاجعة وحدها يمكن أن تخلق الصدمة. حادث، انتحار، انكسار. يريد الناس أن يسمعوا حكايات عن المذبحة.

وماذا عن قطرة المياه التي تتسرب، بإصرار، من الصنبور سيئ الإغلاق؟ ما أسوأ تلك النقرات الخافتة وسط عزلة الليل، والأسوأ منها أن تكون مرتبكًا، ألا تستطيع أن تخمن احتمالية تعرضك للتدمير، وكم من الوقت سيستغرق الأمر.

كذبت على ميمو الثالث للمرة الأولى حينما أخبرته بمحاولة اختطافي في سيارة أجرة. أحببت قلقه عليَّ، لكن إصراره أزعجني.

«لنتقدم ببلاغ، لنذهب إلى الطبيب».

لم أرغب في شيء سوى الالتحاف بالأغطية وممارسة الجنس. شتمت ميمو، وكررت بعض الكلمات التي كان بابا يستخدمها لكسر خوليان.

أمضيت كل هذا الوقت أتجنب التحول إلى ماما، لينتهي بي المطاف وقد تحولت إلى بابا.

يقلد: ينسخ، يرث. «أينما مضيت فافعل ما رأيت»[1]. يُعد التمويه آلية للبقاء على قيد الحياة، للتواصل مع البيئة المحيطة وتخفيف الارتباك في بلد بلا مرايا.

اختفى خوليان تمامًا خلال تلك الشجارات. حتى وهو داخل البيت أطفأ نور غرفته، وأعتقد أن الأمر وصل به إلى كتم أنفاسه. غير موجود، أثيريٌّ، مجرد روح، كان يتظاهر بالموت.

انتقدت آنا بقسوة التعقيدات التي خلقتها داخل عقلي، وبالمثل ضحكت منها، فقد تحلت بالقدرة على إيجاد الضحك في أكثر الأحداث

(1) مثل في اللغة الإسبانية. (المترجم).

صدمة. أفكر أحيانًا في أن تلك الخصلة كانت لتساعدني كي أصبح شخصًا أفضل، لو أنني فقط طورتها مع الوقت.

شيئًا فشيئًا بدأت أبتكر لميمو قصصًا عن طفولتي، كما فعلت مع الجميع. ثمة مرات حضر فيها خوليان المشهد، عندئذ كنت أحكي بنظرة مفادها: «هل ستخبر ميمو بالحقيقة؟ دعنا نرى ولو لمرة واحدة إلى أي جانب تنتمي».

لطالما انحاز إلى جانبي. كنا أخوين لسبب ما.

بمرور الوقت تصاعدت شجاراتي مع ميمو وبدأنا نهجر بعضنا لفترات طويلة، فتوقف عن زيارتنا واستحال البيت أكثر صمتًا من المعتاد. اشتقت إليه، وبحث عنه هوجو في المطبخ وبكى لأنه لم يعثر عليه. فعل خوليان الشيء نفسه، ولكن على طريقته؛ إذ أطلَّ من النافذة لعله يرى سيارته، واحتفظ له بقليل من الطعام في الثلاجة: نصف شطيرة من لحم الخنزير، وآخر قطعة «بنجوينو مارينيلا»[1] في العلبة.

إنها المرة الأولى التي أحظى فيها بشيء يشتاق إليه أخي. وددت في بعض الأحيان أن أمنحه إياه، أن أتصل بميمو وأطلب منه العودة، أن أُنزل كل الدروع وأسمح لنفسي بأن أكون سعيدة إلى جانبه. الهدوء والحنان والسخاء، يمكن العيش في وجود كل تلك الأشياء.

لكنني لم أعرف كيف أفعلها.

---

(1) منتج تجاري عبارة عن كعكات من نوع «Cupcake». (المترجم).

مشكلة الصمت أنه دومًا يفوز بالنقاش؛ إذ لا يمكن دحض حجة لا وجود لها.

اعتاد خوليان أن ينزع كلماتي من سياقها بأنسب طريقة له. أفترض أننا جميعًا نفعل الأمر ذاته، لكنه أخذها دومًا إلى أسوأ مكان ممكن. في الأسبوع الذي تبنينا فيه هوجو سألَنا الطبيب البيطري الذي فحصه عن مكان عثورنا عليها.

أجبته: «خارج منزلي». ظل الطبيب ينصت إلى رئتيه من خلال فرائه.

استغرق الأمر هوجو ثلاثة أيام ليفهم أن بإمكانه الوثوق بي.

واستغرق الأمر خوليان عشرين سنة.

بعد أسابيع من ذلك الموقف، كنت أسير مع أخي في طريق العودة من المترو فتذكرت أن علينا المرور لسداد فاتورة المياه.

سألت خوليان: «هل تحمل مالًا؟»، فأعطاني عدة ورقات دفعت بها.

لدى وصولنا إلى الشقة، مد يده كما يفعل دائمًا حين يقبض المال مني.

احتججت: «لن يحدث لك شيء لو دفعت فاتورة المياه بين الحين والآخر، أنت أيضًا تعيش هنا».

رمقني بكل الكراهية الرابضة خلف عينيه الحزينتين.

ثم أصدر حكمه: «قلتِ إنه منزلك»، ومثَّلت يده الممدودة إعلانًا للحرب. ثمة آلاف التفسيرات المحتملة للعبارة التي قلتها ذلك اليوم في عيادة الطبيب البيطري، لكنه بالطبع اختار أكثرها إيلامًا. لم أرغب في إبراز حقيقة أنه منزلي، بل هي طريقة لقول الأشياء فحسب، أو ربما أردت ذلك فعلًا وانتبه خوليان إلى الأمر. على الأرجح أنه من كثرة الاستماع إليَّ صار يعرفني جيدًا.

تشاجرت مع ميمو في تلك الليلة، ولست أذكر السبب حتى. آذيت قدمي بعدما ركلته في ربلة ساقه، فغادر المنزل متألمًا وهو يحمل حقيبة ظهره في يده. صفقت الباب خلفه وجلست في الصالة لفحص قدمي، فأحضر لي خوليان العسل وساعدني في وضع ضمادة لكيلا ألطخ الملاءات.

قال لي: «آسف».

حينها انفجرت بالبكاء.

اعتقدت في طفولتي أن الاعتذارات دليل على الطيبة. «ماما وخوليان يعتذران طيلة الوقت، وهذا لأنهما شخصان طيبان جدًّا». ربما ثمة علاقة بين الجدة وبين تكويني لهذا التصور المتعلق بالتضحية ونكران الذات.

ظل هذا الأمر قائمًا حتى عشت مع خوليان فبدأت أكره الاعتذارات.

الطيبة: التواضع، السخاء. تمسيد حيوان نائم. مساعدة شخص آذى نفسه.

بعد مرور عام على انتقالنا معًا، تشاجرنا أنا وخوليان بصورة شبه يومية. يبدو الأمر غير عادل قليلًا حين أقول تشاجرنا، كأننا كنا نتبادل الآراء حقًّا. هجوم، دفاع، مناورة، هدف. يشق عليَّ الاعتراف بأن مجادلة أخي بدت كضرب حيوان مجروح، فكل عبارة أقولها مثَّلت ركلة في أضلاع الأيل الذي يرقد على الأرض داميًا.

لطالما سقط خوليان مستسلمًا بعد حجتي الأولى، «آسف»، سالبًا إياي الفرصة لقول المزيد. «آسف»، حينها أستشيط غضبًا حتى أفقد السيطرة بالكامل وأظن أنه يسعى إلى مجاراتي.

«ألا يمكنك الجدال كشخص طبيعي؟»

«آسف».

«أنت لا تعرف حتى ما الذي تعتذر عنه».

في تلك الفترة بدأت أومن بأن مواجهة الآخرين مهارة محبذة، فانجذبت إلى من يستطيعون الجدال بضراوة، الشجار، الهيمنة. أما من يستسلمون فلا قيمة لهم.

«آسف».

دفعتني اعتذارات خوليان إلى الجنون، ورغبت في لَكم وجهه أو طعنه حتى ينفجر، حتى يطلق العنان لتلك الشتائم التي أعرف أنه يخفيها بداخله، لعل وعسى تأتي بعدها كلمات أخرى. يعتمد الأمر برمته على دفعه إلى الحد الأقصى، مثل ترك الماء العكر لينساب في حوض منزل جديد.

لن تصمد السدادة طويلًا وسيتحول إلى شخص آخر.

لم تكن الشتائم التي يخفيها خوليان موجهة إليَّ، بل هي مجرد انعكاسات في مرآته الدائرية.

لن أعاود الشجار مع خوليان.

أنا الآن من تعتذر ولا تعرف السبب.

ربما كان موت أخي هو اعتذاره الأخير.

بعض الأشياء التي اعتذر لي خوليان عنها:

الأطباق المتسخة.

شعر هوجو الموجود على طاولة المطبخ.

نسيان إبلاغي بأمر ما.

عدم إخطاري بأن ماما اتصلت.

إنهاء مناديل المرحاض وعدم استبدالها.

رائحته الكريهة.

عدم إغلاق الباب بالمزلاج.

نسيان وضع الماء لهوجو.

الإزعاج.

الشخير.

عدم الوضوح.

عدم الإجابة عن أسئلتي بشكل ملائم.

عجزه عن الدفاع عن نفسه.

عدم الكلام.

كونه صامتًا.

الإيذاء من دون قصد.

كونه مكسورًا.

لا أحمل أي ذكرى عن اليوم الذي وُلد فيه أخي. لطالما قالت ماما إن سر حب خوليان للبكاء أنه وُلد في الصيف، في اليوم الأول من موسم الأعاصير.

منذ أن وعيت على الدنيا وخوليان يلازمني دائمًا، ما من بداية لظهوره في ألبوم ذاكرتي الممزق. أخي خوليان، الذي كان يغني أغنيات من الراديو وهو لا يعرف معناها، المتواطئ الأساسي الذي تخلى عني في وسط المعركة لانشغاله الشديد بإنقاذ نفسه.

تخليت عنه أيضًا بعد ذلك، في الخفاء. لم أعترف بهذا القرار لأحد ولا حتى لنفسي، لكنني انتهزت نوم الجميع للفرار من خندقي والتحالف مع العدو.

قبل موته بيوم واحد، تحدثت أنا وأخي عن احتمالية انتقالنا من الشقة بسبب عدم دخول ضوء كافٍ إليها وطقطقة الأرضية الخشبية بصورة أكثر من اللازم. قلت له: «كما أن المالك لا يحب القطط، ولم نخبره بأن لدينا هوجو».

فكرت كذلك في أن ميمو الثالث قد يرغب يومًا في العيش معنا.

رمقني خوليان بكل هدوء العالم، وفي عينيه يكمن ذلك التناقض الأبدي. حب وألم، فرار وقتال، بابا وماما، حياة وموت.

وضع هوجو في حجره وقبَّل رأسه، وابتسم. زعزعني هذا التصرف العاطفي بطريقة ما؛ إذ إن أخي تمتع بحب ماما والجدة، لكن لم يسبق

له أن مارس قدرته الفعلية على إظهار المودة. كانت العناقات القليلة التي يمنحني إياها بروتوكولية أو متشحة دائمًا بعباءة الحداد.

أكثر ما يؤلمني حين أتذكر ذلك المشهد هو أنني رأيت فيه بصيصًا من الأمل؛ إذ قلت لنفسي: «حانت اللحظة. خوليان يتعافى، لقد عالجه القط».

اليوم أُدرك أن سبب ظهور أخي بمظهر أخف هو تحرره أخيرًا مما أثقل كاهله لسنوات. كسر جدران سوره، وغادر المتاهة، وعثر على طريقة لجعل وجوده أمرًا يمكن احتماله.

ترك خوليان ساحة المعركة ركامًا وعاد إلى البيت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قائمة بالمتعلقات الشخصية الخاصة بخوليان ر. ج.، 22 عامًا، متوفى. تقرير الطب الشرعي: اعتلال دماغي إقفاري بانعدام التأكسج سببته إصابة ذاتية:

حذاء رياضي بطول 28 سنتيمترًا.

بنطال من الجينز مقاس 30 أسود اللون.

قميص أسود قطني.

سترة رياضية سوداء من المقاس المتوسط.

تذكرتان لهيئة المترو للنقل العام.

سلسلة مفاتيح.

38 بيزو، مقسمة على النحو التالي: ورقة نقدية من فئة 20، عملة معدنية من فئة 10، ثماني عملات معدنية من فئة بيزو واحد.

غلاف «جانسيتو مارينيلا».

كيس بلاستيكي به صور.

أنا وأخي، بين أرجوحات حديقة ميرثيد، وثمة بِرَك مياه في الأرض تشير إلى هطول المطر. على ما أذكر، لم تكن تلك الأمسية بالذات من الأمسيات اللطيفة.

أعتقد أنني بدأت أفهم سبب احتفاظ أخي بتلك الصور. لقد حاول ترتيب الفوضى ووضع إطار لكل ما عشناه، بعد أن بلغ وجهة مشؤومة ولا يعرف كيف حدث الأمر. كانت الصور هي الخيط الذي سيُخرجه من المتاهة، فأخذ يتقفى أثرها لعله يفهم.

أنا الآن من تحاول أن تفهم.

ثمة أمور معينة نُطبِّعها من كثرة العيش بين الموتى. يزداد الهدوء في بروتوكول تلقي الخبر، ويصبح تقديم العزاء تقليدًا عفا عليه الزمن، لا يمارسه إلا العجائز الحمقى المتشبثين بالعادات القديمة. «أنا آسف». يتردد صدى الحَرفية في الغرفة. آسف لأنني أعرف هذا الألم عن قرب؛ إذ فقدتُ شخصًا أنا الآخر وأتعاطف مع كل فقدان. آسف.

الأسف: الأسى، البكاء.

(ما من بكاء).

بعدئذ يأتي السؤال الحتمي. صوت مصطنع ورقيق يحاول تجنب الإساءة: «كيف مات؟».

الجواب في صفات: حزينًا، وحيدًا، صامتًا، مجروحًا. في أحوال: بصورة بطيئة ومروعة. في أفعال: قرر، رتَّب، دبَّر. نفَّذ.

لا يهم كيف، المهم لماذا، هذا هو السؤال الوجيه الوحيد على الأقل بالنسبة إليَّ. لماذا كان عليك أن تصبح بهذا الضعف؟ لماذا لم تطلب مني المساعدة؟ لماذا تركتني؟ أنا الآن الناجية الوحيدة من ذلك الوطن الممزق، والمرآة الأخيرة: وداعك. خوليان الوغد اللعين، لماذا أيها الأحمق؟

ظللت أفكر في الحياة بعد الموت، تحدثت مع آنا عن الأمر طيلة الوقت ولم نصل إلى أي استنتاج.

أتساءل هل تمكنت الجدة من دخول الجنة كما أرادت دائمًا، هل استقبلها الجد بزهرة على طية صدر سترته. تُرى هل يستعرض سكان ذلك الفردوس الخيالي أفضل نسخة من أنفسهم، وماذا ستكون هذه النسخة في حالة جدي وجدتي.

ماذا ستكون نسختي؟

الفردوس: الواحة، الملاذ، السلام. بحر لا نهائي، غابة خُلقت للتو. بيت الجدين.

لم يكن خوليان قط بمثل سعادته في الخامسة من عمره، فهل يتسنى لصبي نحيف شعره مفروق من المنتصف، أن يجوب أروقة ذلك المكان الذي يعلو السحاب؟

لا متسع لبابا في ذلك المكان، ليس له سوى المنفى.

تعقدت مسألة التصالح مع بابا بعد موته. لا يزال حريق حياته يترك بيننا، نحن المكسورين، آثارًا. قد يكون موت خوليان هو الأحدث، لكنه ليس الأخير. ظل بابا يحوم في هيئة شيطان، في هيئة صدمة. إنه المتسبب الأكيد في أبرز آلامي ومصدر الشرور العظيمة، إنه الكارثة.

اشتقت كثيرًا إلى أخي.

ثمة مرات لم يتحلَّ فيها خوليان بمجرد الرغبة في تغيير ملابسه، عندئذ يتجول في الشقة وهو يرتدي ثيابًا بالية، ويأكل قليلًا، ولا ينام جيدًا، ويتجنب التواصل البشري وخاصةً معي، ثم ينعزل في غرفته لأيام.

على الرغم من كل شيء، فقد تحلى بالقوة والوضوح الكافيان لكي يخطط وينفذ وداعه. المنطق الرمزي مذهل، لكنه يرهقني. أفكر في كل هذا مؤخرًا.

لا يزال الوجود اللاجسدي لخوليان يجوب أنحاء الشقة. أسمع طقطقة الخشب فيستغرقني الأمر بضع ثوانٍ لأستوعب أنه هوجو. لم يذهب خوليان إلى الحمام، كما أنه لا يتمشى في المطبخ. لم يعد أخي موجودًا إلا في ذكرياتي كشظايا طفولة مكسورة. حياتان سيئتا التخطيط والتنفيذ، طيفان، حادثتان.

لم يأت ميمو لزيارتي. يوم أن تلقيت الخبر هرعت إليه صارخةً، ولُمته ظلمًا على جميع المصائب.

لوم الآخرين أسهل.

كسرت المرآة الدائرية.

يلوم: يحمِّل المسؤولة، يتهم. حملٌ ثقيل وخانق. ندم. مرض.

بعض الأشياء التي حظي بها خوليان، وأنا لا، وحسدته عليها:

حضن ماما.

كلماتها.

حبها.

اهتمامها.

المعادلة الوراثية للنحافة.

الرعاية المتفانية من الجدة.

الشجاعة لمواجهة بابا في تلك المرة الوحيدة.

صداقة ميمو الثالث.

مودة هوجو.

حب عميق ومجرد ناحيتي.

الشجاعة والقيمة.

الحرية.

القرار.

الراحة.

حاولت التحدث في الأمر مع ماما، لكن في تلك اللحظة لم يكن هناك متسع بداخلها لأي شيء سوى الألم. سدت الأبواب والنوافذ، وكتمت الأصوات، ولم تعد تجيب على الهاتف حتى. إنها مستسلمة للموت، وأتصور أنها ظلت ساكنة حتى صار الانتباه إلى وجودها مستحيلًا. شفافة، توشك أن تبلغ حد الاختفاء الذي تصبو إليه.

فكرت في ضرورة زيارتي لها، فنحن الناجيتان الوحيدتان من ذلك الوطن المسلوب. سأريها صور خوليان حتى نستطيع مشاركة الذكريات، والتحدث عن أحد هذه الموضوعات التي لم يسبق أن تحدثنا فيها. سأخبرها بأن خوليان كان شبحًا لطيفًا وطيب القلب، طفلًا مجروحًا في جسد كبير جدًّا.

سأخبرها أيضًا بمدى اشتياقي إليه، فلقد أحببت أخي رغم كل شيء، ووددت لو حدثت قصتنا بطريقة مختلفة.

لن تجيب ماما بشيء، وسأقرأ في صمتها رسالة: هذا المكان مغلق إلى الأبد.

سأرحل عن بيت ماما حاملةً هذه الشظايا التي ستتبخر في نهاية المطاف. الحداد الذي تحمله لا يتوافق مع حدادي، ألمها ليس ألمي. أتينا من الأرض ذاتها، لكن خرائطنا مختلفة.

العائلة: القبيلة، المأوى، الوطن، الفكرة. اتحاد ثلاث نقاط في وحدتهما الصغرى: المثلث. من دون خوليان، لم يبق سوى خطين مستقيمين مثبتين بشكل سيئ.

سيفككنا موت خوليان، ولعله أيضًا، ببعض الحظ، يحررنا.

قد تصبح هذه هي المرة الأخيرة التي أرى فيها ماما، قبل أن يختفي وطني إلى الأبد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شكر وعرفان

إلى بيت آل أوكتابيا وقاطنيه. امتناني الأبدي إلى سيلبيا أجيلار ثليني على سحرها، وإلى كارلوس إرناندِث على دعمه.

إلى فرناندا ملتشور، وكريستينا ريبيرا جراثا، وخوليان إربرت، وخورخي ليبيدب، وكذلك إلى دار «ليتيراتورا راندوم هاوس» ومكتبات «غاندي» على منح هذه الفرصة إلى هذا الثنائي المكسور. إلى روميو تيِّو أريستا على اعتنائه بالطبعة.

إلى عائلتي، على الحب والحكايات. إلى أصدقائي، وطني الحقيقي. إلى صمويل، على النور الذي تمكن من اختراق هذه الشقوق. إلى بيلوسا، لأنها سمحت لنفسها بالتعافي.

إلى كل المكسورين والأشباح، أولئك الذين يمضون حاملين شظاياهم.

بين المكسورين

«نحن معشر المكسورين نتعرف على بعضنا بسهولة. نتجاذب ونتنافر بالصورة ذاتها، ونشكّل رابطة حزينة ومهزومة. نحن البلدة التي بُنيت إلى جوار البركان، والمدينة التي انتصبت فوق أرض مهزوزة. كل أيامنا، أيام الزلزال الكبير. ستنهار قريتنا، وبين لحظة والأخرى ستختفي عن وجه البسيطة».

تعثر فتاة شابة على مجموعة صور تعود لأخيها الأصغر خوليان. لا تفهم لماذا قرر خوليان أن يحتفظ بتلك الصور التي لا تؤطر لحظات سعيدة على وجه التحديد، بل على النقيض، يبدو معظمها كمقدمات لكارثة منزلية. بالتفكير في الأمر جيدًا، فإن هذه هي طفولته في بيراكروث، مقدمات وعواقب لكارثة مستمرة، التكوين الدقيق لها وأخيها ووالدتها في صورة حطام. والدها رجل عنيف وغير متوقع، يؤذيهم بأكثر الطرق تعسفًا واستفزازًا. على الرغم من ذلك، لطالما كان الجزء الأسوأ من نصيب خوليان، وهو ما دفعه في لحظة معينة إلى الاحتماء خلف سور من الصمت، لكن الصمت قادرٌ على تلويثه بنسخته الخاصة من العنف.

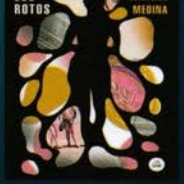

هذه الرواية هي إعادة بناء لألبوم الصور الذي يمثل أحجية ويُعد ذاكرةً كاملة. تعرف الأخت الكبرى أنها لا تستطيع الاعتماد على تلك الصور في حكي قصة سعيدة، فهل ستتمكن على الأقل من حكي قصة معقولة؟ ومن هو الغائب الأكبر في هذه الحكاية، خوليان أم هي نفسها؟ هل ستستطيع النجاة من الغرق في الوقت المناسب؟

في عمل نثري مثالي، مؤثر ودقيق على حد سواء، تذكّرنا «بين المكسورين» بأننا نمثل ذاكرتنا الخاصة، وأنها مشكال يعرض صورًا مكسورة أكثر منها ملونة.

telegram @soramnqraa

غلاف: عبد الرحمن الصواف

9 789776 972612

aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb